الباب الخامس

ماذا خسر العالم: أسلوبه و منهجه ودوره في إثراء الأدب العربي

الفصل الأول : اهتمامه باللغة العربية

الفصل الثاني : أسلوبه

الفصل الثالث : إشادة من العلماء بأسلوبه، وبعض نماذج من أسلوبه

الفصل الرابع : ميزات أسلوب الندوي في كتاب "ماذا خسر"

الفصل الخامس : منهج وركائز الندوي في تأليف كتاب "ماذا خسر العالم"

الفصل الأول

اهتمامه باللغة العربية

من ميزات الشيخ الندوي إتقانه للعربية، بحيث يصبح يتحدث بها كأحدج أبنائها المتفوقين بها المتضلعين من آدابها، ولعل الفض في ذلك يعود، بعد توفيق الله إلى رعاية أخيه الأكبر الذي تعهده منذ صغره، ووجهه إلى تعلم العربية منذ وقت مبكر، وعهد بتدريسه اللغة العربية إلى صديق له من أساتذة اللغة العربية المبرزين، هو الشيخ خليل بن محمد بن حسين بن محسن الأنصاري اليماني، الذي كان محاضرا في جامعة لكناؤ، وقد أقبل الشيخ الندوي على تعلم العربية بهمة ونشاط متواصل، بدفعه في هذا السبيل حرص قوي من أستاذه الذي اختار له، ولزميل له مقررا دراسيا خاصا، اشتمل على بعض الكتب المصرية، المقررة في مدارسها "الطريقة المبتكرة" (١-٤)، و "مدارج القراءة" (١-٣)، وكتاب "كليلة ودمنة"، ودرس الندوي كثيرا من كتب النحو والصرف، ثم درس كتبا قديمة مهمة مثل "نهج البلاغة" و "مقامات الحريري" و "دلائل الإعجاز" و "القصائد العشر"، واستفاد من أستاذه الشيخ خليل تذوقه للعربية، ويقول الندوي عن ذلك: لقد شاهدت في الشيخ ملكة عجيبة في التذوق الصحيح للعربية وآدابها ولغتها، ونقل هذا التذوق إلى الطلاب"[١]. وهكذا استطاع الندوي أن يتمكن من لغة القرآن بالدراسة المنهجية والتذوق الأدبي الجمالي، وقد ظهر أثر هذا لتمكن في كتاباته ومحاضراته بالعربية، حيث قدم كثيرا من المؤلفات العظيمة المحكمة في أسلوبها الأدبي، وتماسك بنائها اللغوي، وحسن أدائها البلاغبي، وكان أول كتاب ألفه بالعربية "ترجمة الشيخ الإمام أحمد بن عرفان الشهيد" وهو في الأصل تعريب مقال للشيخ محي الدين القصوري صدر في مجلة التوحيد عن سيرة السيد أحمد الشهيد بالأردية بأسلوب عصري فقام بتعريبه وعرضه على الشيخ الهلالي فتناول بعض المواضع بالإصلاح ثم بعثه إلى الشيخ رشيد رضا المصري فنشره في

---

[١] في مسيرة الحياة ١/٧٩.

مجلته "المنار" ونشره كذلك في رسالة مستقلة، وذلك ما شجعه للكتابة باللغة العربية فتتابعت بعد ذلك كتبه بالعربية بصورة فياضة، وعلى هيئة تبعث الإعجاب والتقدير حقا، لما تمتاز به هذه المؤلفات من رصانة وجودة وإحكام في إطار من اللغة الجميلة المواتي، ومن أروع ما ألف كتابه "ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين"، الذي حاز إعجاب الأوساط العلمية والفكرية في الشرق والغرب، وهذا الكتاب رائع لأسلوبه وفذاذة فكره ومعناه وتحليله، فنوه بجهده الشهيد السيد قطب، والدكتور أحمد الشرباصي، والدكتور محمد يوسف موسى، وكتبوا كلمات تقديم وتقريظ لكتابه[١].

[١] جريدة الرائد: سماحة الشيخ أبي الحسن وعناصر تكوين ذوقه الأدبي، العدد ٢٠-٢١، أبريل ٢٠١١م.

الفصل الثاني

أسلوبه

اعترف الأدباء بتميز أسلوب الندوي وجز الله ورشاقته وروعة بيانه وجماله وحسن ديباجته وتأثيره، حتى فضله بعضهم على أدباء العرب، وهو صاحب أسلوب خاص ومدرسة أدبية خاصة عندهم، ولمدرسته هذه ميزات وخصائص تميزها عن المدارس الأدبية الأخرى، وما هو خير دليل على موهبته الأدبية هو ما يحمل له العلماء والأدباء العرب منهم والعجم من الطباعات وشهادات وفي كتاب "المسحة الأدبية" للشيخ محمد واضح رشيد الندوي نماذج عديدة لأسلوبه.

لقد كان الأدب هو العنصر الغالب في عناصر شخصية الشيخ الندوي، وهو الطابع الغالب في سائر كتاباته، والشيئ الذي يميزه عن الأدباء الآخرين هو التقاء عناصر الأدب المختلفة بتوازن في كتاباته، وقد قام الشيخ الندوي بتوظيف الأدب للدعوة والتربية، وخدمة الإنسانية كخطيب، كمعلم، ككاتب، وله أسلوب خاص وصفه أحد الأدباء العرب بالأسلوب الندوي، ونطاق إنتاجه واسع يغطي موضوعات الأدب المختلفة، والشيخ الندوي له تصور خاص عن الأدب، إنه يرفض تصور الجمود، والتقليد في الأدب، أو حصره في موضوعات خاصة، كماهي عادة الأدباء لأغراض محدودة، وقد أشار الشيخ الندوي إلى تصوره عن الأدب ودوره في الحياة، فقال:

"إن الأدب الذي كان أجدر بأن يرفض السير على خط واحد رسمه القدماء، وكان أحق بأن يتعير من الجمود والتقليد من أية مؤسسة علمية ومدرسة فكرية، إن الأدب الذي رضع بلبان الجدة والجراءة والذكاء والتذوق بالجمال، وارتفع أساسه – بالتعبير الأدبي – على حب الجمال في كل شيئ، وعلى الشغف بالأزهار والأوراد، في كل غابة وواحة، هذا الأدب قد وقع – مع الأسف – فريسة العصبية التقليدية، وأصبح أسيرا للعادات والرسوم، وقلما نجد الأدباء والنقاد في هذا العصر يتجاوزون حدود تعريف الأدب والإنشاء الذي جعل كل أديب يترسم خطي الأديب الذي سبقه في رحلته الأدبية، دون أن

يطمح إلى زيادة أو ابتكار، أو تطوير في ذخائر النماذج الأدبية، إنما يتم اختيار عدة أشخاص مثاليين للأدبي والكتابة فيقلدهم كل أديب ومؤرخ تقليدا أعمى، ويجتر آثارهم وأسلوبهم، وما أصدق قول شاعر الإسلام الدكتور محمد إقبال تعبيرا عن هذه المدرسة الأدبية التقليدية تقليد الببغاء، حيث قال: إن هذه المدرسة تدور كثور الطاحون حول محور وأحد قديم. (نظرات في الأدب للشيخ الندوي، ص:٧٥-٧٦).

ويقول الشيخ الندوي وهو يعرف بالأدب:

"الأدب أدب، وإن كان صدر من كاتب ديني أو من نبي، أو كان مصدره كتابا سماويا، بشرط أن مصدره كتابا سماويا، بشرط أن يكون بأسلوب مؤثر ينفذ إلى القلب، ويكون قائله مطمئنا مقنعا بما قاله، ويلتذ به السامع ويقبله، هل يجوز أن تفقد الوردة الجميلة رونقها، وجمالها، وتتحول إلى قذى في أعين الأدباء والشعراء، والهائمين بجمال الفطرة الأخاذ، لأنها نبتت في روضة تحت ظلم مسجد من المساجد، وتستحق زهرة أخرى – مهما كانت زاوية ذابلة – كل مدح وإطراء وكل حب وثناء لأنها نبتت تحت ظل خمارة من الخمارات، إن هذا التمييز في الاستمتاع بجمال الفطرة، وحسن الطبيعة لا يدل على الإنصاف ولا على الذوق الجميل.

فإن الأسلوب الأدبي للشيخ الندوي وتصوره عن الأدب نتيجة لهذا الذوق الأدبي الذي تم تكوينه في فترة دراسته وحياته المدرسية على أيدي أساتذته العرب المتذوقين بجمال الأدب الأصيل وحسن اختيار النصوص الأدبية وقراءته المتواصلة للكتابات الأدبية للنابهين من الأدباء والكتاب[1].

---

[1] جريدة الرائد الصادرة من ندوة العلماء، لكناؤ– ١٦.٠٥.٢٠١١

الفصل الثالث

إشادة من العلماء بأسلوبه ، وبعض نماذج من أسلوبه

ومن أعلام العرب الذين اعترفوا بامتلاك الشيخ الندوي بناصية اللسان العربي وقدرته الفائقة على اللغة العربي وقدرته الفائقة على اللغة العربية حوارا وكتابة، خطابة وتحدثا، وروعة أسلوبه ونصاعة بيانه، فصاحته وبلاغته، أمثال الزعماء البارزين المفتي الأعظم للديار الفلسطينية الشيخ أمين الحسيني، والأمير عبد الكريم الريفي، واللواء صالح حرب الباشا، وعبد الرحمن رأفت الباشا، واللواء محمود شيت الخطاب، ومن أعلام الحركة الإسلامية المعاصرة المفكر الإسلامي الكبير سيد قطب الشهيد، والكاتب الإسلامي القدير محب الدين الخطيب، والدكتور أحمد الشرباصي، والداعية الإسلامي الشيخ محمد الغزالي، والدكتور سعيد رمضان، والأستاذ صالح العشماوي، والشيخ بهي الخولي، والدكتور يوسف سلامة ، والدكتور أنور الجندي، والدكتور شكري فيصل، والأستاذ عباس محمود العقاد، والأستاذ أحمد حسن الزيات، والأستاذ محمد محمود شاكر والدكتور محمد حسين هيكل.

وقد لفت أسلوب أبي الحسن الندوي العربي النقي، نظر الشيخ الأديب علي الطنطاوي، وذلك قبل أن يتعرف عليه شخصيا، فقد كان أسلوب الندوي المتمكن في العربية، مثار عجب الطنطاوي، وتساؤله عن صاحب هذا البيان، ومن ذلك ماقاله في تقديمه لكتاب الندوي "في مسيرة الحياة": "فقلت: من هذا الباحث الهندي الذي يكتب بمثل هذا الأسلوب العربي النقي"[١]. ويقول أيضا: "كتاب الأستاذ أبي الحسن ليس سردا لأحداث حياته، ولكنه كتاب تاريخ، وكتاب أدب فيه وصف للأمكنة كأنك تراها"[٢].

وفي رأي علي الطنطاوي: "وقد يشتغل غير العربي بعلوم العربية حتى يكون إماما فيها، في اللغة والنحو، والصرف والاشتقاق، وفي سعة الرواية، بل إن أكثر علماء العربية

---

[١] في مسيرة الحياة ١/١٠.

[٢] السابق ١/٩.

كانوا (في الواقع) من غير العرب، ولكن من النادر أن يكون فيهم من له هذا الذوق الأدبي الذي نعرفه لأبي الحسن، فلو لم تثبت عربيته بصحة النسب لثبتت بأصالة الأدب"[١].

وقال في تقديمه للكتابه، "الطريق إلى المدينة": لقد كدت أفقد ثقتي بنفسي، ولكني لما قرأت كتابك يا أخي أبا الحسن "الطريق إلى المدينة" أحسست بالشوق يعود ليحتلج نفسي، فعلمت أن قلبي ما خلا من جوهر الحب، ولكن هموم العيش، وطول الألفة قد غطيا جوهره بالغبار، فزاح كتابك عن جوهر الغبار، وكدت أفقد ثقتي بالأدب حين لم أجد عند الأدباء هذه النغمة العلوية التي عني بها الشعراء من لدن الشريف الرضي إلى البرعي، فلما قرأت كتابك وجدتها، وجدتها في نثر هو الشعر إلا أنه بغير نظام، فيا أبا الحسن لك الشكر على أنك رددت إلى ثقتي بنفسي، وثقتي بأدب لغتي"[٢]. كما أثنى على لغته وبيانه المتفق المنعم بالحيوية والجمال الشرباضي في تقديمه لكتاب "ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين"، في قوله: وقد أفادته هذه المطالعات والمساميرات – بجوار الهبة والتجربة – قدرة على الارتحال بالعربية، فهو يتدفق كالسيل بلغة بليغة فيها الصور البيانية والتعبير الجميل، وأغلب محاضراته يستعد لها ، وكثيرا ما يكتبها وأسلوبه يغلب عليه العنصر العاطفي الملتهب"[٣].

قال الشيخ العالم الداعية علي الطنطاوي وهو يقدم لكتاب الإمام الندوي "مسيرة الحياة": "كتاب الأستاذ أبي الحسن ليس سردا لأحداث حياته، ولكنه كتاب تاريخ وكتاب أدب، فيه وصف للأمكنة، كأنك تراها، وكتاب علم فيه ذكر العلماء ومجالس العلم، وسجل اجتماعي فيه وصف عادات الناس وأوضاعهم في الهند".

ويقول وهو يلقي الضوء على الذوق الأدبي للشيخ الندوي وحسن اختياره:

"إذا كان الدليل على ذوق الأديب اختياره، فحسب القراء أن يعلموا أننا عرضنا من أمد قريب كتب المختارات الأدبية لنتخير واحدا منها نضعه بين أيدي تلاميذ الثانويات الشرعية في الشام، وذهب كل واحد من أعضاء اللجنة – وكلهم من الأدباء – يبحث

---

[١] علي الطنطاوي في كتاب أبو الحسن علي الحسني الندوي للأستاذ عبد الماجد الغوري ص:١٨٢.

[٢] الطريق إلى المدينة، ص:١٠.

[٣] ماذا خسر، ص:٢١.

ويفتش، فعدنا جميعا وقد وجدنا أن أجود كتب المختارات المدرسية وأجمعها لفنون القول وألوان البيان، مختارات أبي الحسن".

وكتبت في ذلك مرارا، فما التفت إلى ذلك أحد، فيئست منه، حتى وجدت كتاب أبي الحسن، فإذا هو قد نفض كتب الأدب والتاريخ نفضا، وحرثها حرثا، فاستخرج جواهرها، فأودعها كتابه"[١]. وقد كتب بعض الأدباء البارزين أن كلام الشيخ الندوي ينفذ في القلوب مباشرة، وهو تعريف الأدب العالي، والجيد من الشعر أيضا[٢].

ثم تحدث عن أول معرفته بأبي الحسن واطلاعه على كتاب "ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين" فقال: "لما رأيت هذا الكتاب لم أكن أعرف مؤلفه، فقلت: من هذا الباحث الهندي الذي يكتب بمثل هذا الأسلوب العربي النقي، ويحيط بأحوال المسلمين هذه الإحاطة؟

ويقول عن اهتمامه بالأدب الإسلامي: "وأنا أقول هذا هنا لأن أخانا أبا الحسن فوق عنايته بالدعوة إلى الله، وأنه ركن من أركانها، وعضو ظاهر من أعضائها، يهتم بالأدب الإسلامي، وقد أنشأ له هو وأخونا الأستاذ عبد الرحمن رأفت الباشا – رحمة الله عليه – وآخرون، رابطة تربط أهله وتجمعهم، وتشد من أزرهم، وتعينهم على أمرهم"[٣].

ويقول الأستاذ نور عالم الأميني: "إن الشيخ الندوي كان أول أديب عربي في ديار الهند عرفه العالم العربي الواسع هذه المعرفة الشاملة، حتى إن العربي الذي لا يعرفه يعد جاهلا جهلا فاحشا، فهو ملء السمع والبصر والفؤاد في العالمين العربي والإسلامي"[٤].

بينما قال صحافي هندي آخر "لقد كان الشيخ الندوي أديبا من الطراز الأول من الأدباء في اللغتين العربية والأردية، يحفظ الكثير من عيون الأدب ونوادر الأمثال وبدائع الحكم وغرر أشعار أئمة الشعر العربي والأردي والفارسي ونجومه ما يميزه به خطباته وكتاباته ومجالسه".

---

[١] مقدمة كتاب "مختارات من أدب العرب" للشيخ الندوى، الجزء الأول، ص:٥-٦

[٢] جريدة الرائد الصادره من ندوه العلماء، لكناؤ- ١٠.٠٥.٢٠١١.

[٣] في مسيرة الحياه ١٠-١٢.

[٤] نور عالم خليل الأميني، رئيس تحرير مجلة "الداعي" العربية في مجلة "الصحوة الإسلامية" ص:١٣٣.

ويقول الدكتور وهبة الزحيلي: "وأما أسلوبه فعربي نقي وجذاب وجميل، ولغته سليمة، وأفكاره سديدة، حتى بوأه ذلك ليكون عضوا مراسلا في مجمع اللغة العربية بدمشق، وعضوا في مؤسسة آل البيت في الأردن، وعضوا مؤازرا في مجمع اللغة العربية الأردني، وعضوا دائما في المجلس الاستشاري للجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة"[١].

ويقدم محمد المجذوب رأيه عن أسلوب الشيخ الندوي قائلا: "ومتتبع ما يكتب الشيخ الندوي ليشعر بأن لعباراته الأدبية سحرا لا يتوافر في العادة إلا في العلية من أصحاب المواهب الذين تعمقوا سر الكلمة وتفاعلوا به، وكان لقلوبهم أكبر الأثر فيما يصوغونه، وتلك هي الخاصة الرئيسية التي يمتاز بها أبدا أولو الأذواق الروحية من المتخرجين في مدرسة القرآن"[٢].

يقول أحمد كفتار: "إنه الداعية العالمي الحكيم المتمسك بأحكام القرآن والسنة، البارع في كتابة المقالات في الأدب والفكر والدعوة، فأسلوبه يعجز عن مثله أدباء العجم وكبراؤهم، وعلمه جم وبحثه دقيق في ميادين الثقافة العربية والإسلامية، أثرى المكتبة الإسلامية بكم كبير من المؤلفات القيمة في كافة المجالات، خدماته جليلة، ومآثره عظيمة في مجال الدعوة والتبليغ والتعليم، سواء في داخل الهند أم خارجها، كل هذا جعل منه الشخصية الإسلامية والعالمية المتميزة، التي أثرت الدعوة الإسلامية"[٣].

يقول بهجة البيطار: "فقد وصلني مؤلفكم "مذكرات سائح في الشرق العربي" وكتبت إلى وكيلكم الفاضل بمصر شاكرا، وتصفحته كله فرأيت فيه من الفرائد والفوائد مالا أحصيه عدا، وما يقصر قلمي عن وصفه، وسبحان من وهبكم القدرة على الكتابة بلسان عربي مبين، ليس فيه شائبة العجمة"[٤].

---

[١] الدكتور وهبة الزحيلي، في مقدمته لكتاب عبد الماجد الغوري، ص:١٨.

[٢] للأستاذ محمد المجذوب في كتاب "علماء ومفكرون عرفتهم" المجلد الأول ص:١٤٦.

[٣] د / الشيخ أحمد كفتار وفي تقديمه لكتاب الأستاذ الغوري أبو الحسن علي الحسني الندوي ص:٨.

[٤] الشيخ محمد بهجة البيطار في نفس المصدر ص:١٨٧.

يقول مصطفى سعيد "إذا نظرت إلى أبي الحسن من زاوية العلماء رأيته في القمة من العلم، وإذا نظرت إليه من زاوية الدعوة إلى الله في هدوء وتعقل وجدته كذلك، وإذا نظرت إليه من زاوية الإعراض عن الدنيا والإقبال على الآخرة وجدته كذلك....."[١].

يقول مصطفى السباعي: "وكتبه ومؤلفاته تتميز بالدقة العلمية وبالغوص العميق في تفهم أسرار الشريعة وبالتحليل الدقيق لمشاكل العالم الإسلامي ووسائل معالجتها"[٢].

ويقول عن كتاب الإمام الندوي "رجال الفكر والدعوة": "هذا الكتاب صورة واضحة لأفكار الأستاذ الندوي وميوله الإصلاحية،وتفهمه العميق للتاريخ الإسلامي ولروح الإسلام الصافية المشرقة، وما علق بها – في العصور الأخير – من غبار وما أصابها من انحراف، وبذلك يسد هذا الكتاب ثغرة في دراسة التاريخ الإسلامي، كنا وما نزال نشعر بالحاجة إليها، إذ نتحدث عن تاريخ الإصلاح في حياة المسلمين السياسية والدينية والاجتماعية في فترات من تاريخ الإسلام في الماضي كما يعرض لنا صورا واضحة لأبرز زعماء الإصلاح الإسلامي منذ العصر الأموي"[٣].

يكتب أحمد طحان: "عندما أتحدث عن السيد أبي الحسن الندوي فإني أتحدث عن كاتب إسلامي من طبقة العلماء القلائل الذين جمعوا بين العرض الموضوعي العلمي الدقيق وبين المقارنة الواسعة والحل المناسب، ضمن أسلوب أدبي رصين، جمع بين بلاغة الأولين وسهولة المتأخرين"[٤].

يقول القرضاوي: "ولا غرو أن رأينا شيخنا أبا الحسن مثالا متميزا للعالم المسلم، الداعية المجدد، مثالا بين رقة الربانيين وتوحيد السلفيين، والتزام السنيين، وثقافة المعاصرين، ومن ينابيع القرآن والسنة المطهرة علما وفهما، وتذوقا وعملا حتى ارتوى وروي، متضلعا من الأدب العربي، والفارسي، والأردوي، ممتلئا من كنوز التراث

---

[١] الدكتور مصطفى سعيد الحسن في نفس المصدر ص:١٥-١٧.

[٢] الدكتور مصطفى السباعي في نفس المصدر ص:١٨٤.

[٣] تقديم كتاب "رجال الفكر والدعوة في الإسلام" (الجزء الأول).

[٤] الأستاذ أحمد محمد طحان في نفس المصدر ص:١٨٨-١٨٩، والأستاذ أبو الحسن علي الحسني الندوي: كاتبا ومفكرا، للأستاذ نذر الحفيظ الندوي، ص:١٦

الإسلامي الغني، آخذا منها ما صفا وتاركا ما كدر، ممثلا خير تمثيل لشعار الندوي المباركة"[١].

ويقول الشهيد سيد قطب في تقديمه لكتاب قصص النبيين للأطفال (الجزء الثالث): "ولقد قرأت الكثير من كتب الأطفال – بما في ذلك قصص الأنبياء عليهم الصلوات والسلام – وشاركت في تأليف مجموعة "القصص الدينية للأطفال" في مصر، مأخوذا كذلك من القرآن الكريم، ولكني أشهد في غير مجاملة – أن عمل السيد أبي الحسن في هذه القصة[٢] التي بين يدي، جاء أكمل من هذا كله، وذلك بما احتوى من توجيهات رقيقة وإيضاحات كاشفة لمرامي القصة وحوادثها ومواقفها، ومن تعليقات داخلة في ثنايا القصة، ولكنها توحى بحقائق إيمانية ذات خطر، حين تستقر في قلوب الصغار أو الكبار".

ويقول في تقديمه للكتاب "ماذا خسر": "هو من خير ما قرأت في هذا الاتجاه في القديم والحديث. إن الخصيصة البارزة في هذا الكتاب كله هي الفهم العميق لكليات الروح الإسلامية في محيطها الشامل، وهو ولهذا لا يعد نموذجا للبحث الديني والاجتماعي فحسب، بل نموذجا كذلك للتاريخ كما ينبغي أن يكتب من الزاوية الإسلامية"[٣].

ويقول الأستاذ أنور الجندي في كتابه "أعلام القرن الرابع عشر": "قد عمل الأستاذ الندوي منذ سنوات طويلة على تناول كل ما يتصل بقضايا الفكر الإسلامي ومعضلاته، وكل ما يتصل بالشبهات المثارة، عارضا ذلك باللغة العربية الفصحى، متحدثا بها من فوق منابر القاهرة ودمشق ومكة ولبنان وبغداد في خلال رحلات دعوة إلى الله، وكتبه منثورة بين شباب العرب والمسلمين"[٤].

تمتاز كتابات العلامة الندوي كلها بعذوبة ورقة، قلما تجد لها نظيرا بين كتابات المعاصرين، وتفيض مؤلفاته وكتبه عاطفة وحيوية، والتي يتحدث عنها الأستاذ الندوي

---

[١] الشيخ يوسف القرضاوي في نفس المصدر ص:١٨٩-١٩٠.

[٢] المراد به قصة سيدنا موسى عليه السلام في الجزء الثالث من "قصص النبيين للأطفال"، الطبعة المصرية.

[٣] مقدمة الأستاذ سيد قطب ص:١٦-٢٠.

[٤] ص:٤١٥.

بأحاسيسة وبفؤاده، وبعقله وفكره، وأنه يكتب بمداد الفؤاد، ونور اليقين الذي ملأ أقطار قلبه أنه لرائد جيل في هذا الميدان، ومؤسس مدرسة منفردة"[١].

ويقول:

"أسلوب الشيخ الندوي في غاية الروعة والجمال، وله قدرة عالية في البيان، وعمق الفهم للإسلام. يركز الشيخ الندوي دعوته على العرب، ودورهم الممثل في اليقظة الإسلامية، وآماله وتطلعاته إلى النهضة الجديدة التي تحمل لواء المفهوم الصحيح للإسلام دينيا ودوليا، ونظام مجتمع ومنهج حياة"[٢].

ويقول الأستاذ عبد الله عبد المجيد: "يناضل الأستاذ الندوي نضال الأبطال ليجعل الرصيد الإسلامي ثروة وقوة لها شأنها في مقاومة التيار الغربي الفكري، وقوة في مجال البناء الإنساني العلمي والحضاري، له الطابع العالمي، والذي يحقق مقاصد الإسلام مجردة من جميع الأشكال والصور والمظاهر التي تجسم في الماضي حضاريا وفكريا في عقول الأجيال، فهو يحرر العقلية المعاصرة من داخلها العالمي الإسلامي ويحرر بطريق الدعوة الجادة المخلصة وبطريق التربية لهذه الأجيال المسلمة مع إيمانه الكامل بالعقيدة الصافية، فهي الطريق الأمثل الذي لا طريق غيره"[٣].

ويقول الدكتور محمد يوسف موسى في تصديره للكتاب: "".

: "إني – علم الله – لست أذكر فيما قرأت من القديم والحديث كتابا يحوي من الخير ما حواه هذا الكتاب، ولا كتابا وضع أيدينا على دواء ما نشكو منه من أدواء وأمراض، كما فعل هذا الكتاب، ولا كتابا نفذ كاتبه إلى روح الإسلام وأخلص ويخلص في الدعوة له، ويقف كل جهوده على هذه السبيل كهذا الكتاب. أشهد لقد قرأت الكتاب حين ظهرت طبعته الأولى في أقل من يوم وأغرمت به غراما شديدا، حتى كتبت في آخر نسخة وقد فرغت منه: "إن قراءة هذا الكتاب فرض على كل مسلم يعمل لإعادة مجد

---

[١] الدكتور فاروق حماده في كتابه "مصادر السيرة النبوية وتقويمها" ص:١١٣-١١٤.

[٢] الأستاذ أنور الجندي في نفس المصدر ص:١٨٧، والأستاذ أبو الحسن علي الحسني الندوي: كاتبا ومفكرا، للأستاذ نذر الحفيظ الندوي ، ص :١٥

[٣] "الانطلاقة التعليمية في المملكة العربية السعودية" ص:٤٢٣-٤٢٤.

الإسلام [١]". (من تصدير كتاب "ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين؟" ص:١٧، الطبعة الأولى، دار الغد الجديد، المنصورة، مصر ٢٠٠٥م).

يقول الأستاذ جهاد عادل معلقا على كتاب "الصراع بين الفكرة الإسلامية والفكرة الغربية" في صحيفة "البلاغ" الكويتية: "السيد أبوالحسن ارتحل بنا في هذا الكتاب على شبكة من الخطوط الفكرية أقامها مرة في العمق التاريخي، وأخرى فوق أرضية التاريخ الإسلامي السياسية والفكرية، يتناول الكتاب كثيرا من "التيارات" الإسلامية في العالم الإسلامي، والتساؤل يتم ما هو موقف العالم الإسلامي من الضربات التي تسللت إلى أعماقه؟ إن الكاتب قد جمع بين مزايا عديدة جعلته من أقدر الباحثين المعاصرين على معالجة الأمور الإسلامية ضمن عقلية علمية دقيقة وإيمان هادئ"[٢].

ويقول الدكتور شكري فيصل عضو المجمع العلمي العربي بدمشق: "إن ما يمتاز به المؤلف ويرتفع به إلى مصاف كبار المفكرين المسلمين ذلك هو نظرته الشاملة العالية إلى تطور الحياة الإنسانية، والواقع أن من مميزات هذا الكتاب أسلوبه الواضح، ولعل وضوحه أثر من انعكاس وضوح الفكرة والإيمان بها وفيضها عن ذات المؤلف العميقة، على أنه من نحو آخر قوي قويم، يملك قدرة واضحة على الستشهاد بالقرآن الكريم، والحديث الشريف، في صفحات كثيرة، والشعر، واستثمار التراكيب القرآنية والعربية استثمارا واسعا، واختيار العناوين وتلوينها اختيارا وتلوينا طريفين، ووضع الشاهد في مكانه الذي يجب أن يكون فيه، حتى لكأنه قطعة من النص وكلها هذه سمات أسلوب مكين واضح"[٣].

---

[١] من تصدير كتاب "ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين؟" ص:١٧، الطبعة الأولى، دار الغد الجديد، المنصورة، مصر ٢٠٠٥م

[٢] من عرض الكتاب بقلم الأستاذ أحمد محمد طحان في مجلة "المجتمع" الكويتية.

[٣] من مقال له نشرته مجلة "الثقافة" المصرية في عددها الصادر في ٨ / من ربيع الأول سنة ١٣٧٠هـ (١٧/ديسمبر ١٩٥٠م)

ويقول الأستاذ محمد المجذوب:

"ومتتبع ما يكتب الشيخ الندوي يشعر بأن لعباراته الأدبية سحرا لا يتوافر في العادة إلا في العلية من أصحاب المواهب الذين تعمقوا سر الكلمة وتفاعلوا به. وكان لقلوبهم أكبر الأثر في ما يصوغونه، وتلك هي الخاصة الرئيسية التي يمتاز بها أبدا أولو الأذواق الروحية من المتخرجين في مدرسة القرآن، وبهذه الخاصة يتناول الشيخ (الندوي) الأحداث التاريخية، فإذا هي مائجة بالحياة والعبر، وقلما تقرأ له بحثا أو قصة أو حديثا لا تلمس أثناءه هذه الصورة الناطقة بالحكمة"[١].

نماذج من أسلوبه :

وفيما يلي نعرض بعض النماذج ليتضح للقارئ أسلوبه[٢]:

نموذج للمجال الفكري والاجتماعي:

يقول العلامة الندوي وهو يذكر طرائف العصبية القومية في أوربا:

"كانت نتيجة انحلال النظام الديني وانتعاش النعرة القومية أولا، أن أصبحت أوربا معسكرا واحدا ضد الشرق كله، وخطت خطا فاصلا بين الغرب والشرق، أو بين أوربا وبين سواها من القارات والأقاليم، والجنس الآري وبين ما عداه من أجناس البشر، يعتقد أن كل ما دون هذا الخط له الفضل على كل ما وراءه من نسل وشعب وثقافة وحضارة وعلم وأدب، وأن الأول خلق ليسود ويحكم، والثاني ليخضع ويدين، والأول ليبقى ويزدهر، والثاني ليموت ويضمحل، وهذا بعينه ما امتاز به اليونان، والروم في عهدهم، فقد كانوا لا يعدون مهذبين إلا أنفسهم فقط، وكانوا يسمون كل شيئ غريبا خصوصا كل ما كان واقعا في شرق المحيط الإطلانتيكي بربريا.

---

[١] علماء ومفكرون عرفتهم لمحمد المجذوب، ص:١٢٨

[٢] المسحة الأدبية في كتابات الشيخ أبي الحسن الندوي، طبعة رابطة الأدب، ٢٠٠٤م، ص:١١-١٦.

وكانت نتيجة هذه النفسية الجنسية والعصبية ضد كل ما جاء من الخارج ويعزى إلى أجنبي، أن صارت بعض الشعوب الأوربية تنظر إلى الدين المسيحي وإلى المسيح كطارئ ونزيل يريدون أ، ينفوه من بلادهم ويتبرؤوا منه، يمثل ذلك ما قال أحد المعلمين في ألمانيا وهو البروفيسور أترني:

"لأي شيئ يدرس أولادنا تاريخ أمة أجنبية، ولماذا يقص عليهم قصص إبراهيم وإسحاق؟ ينبغي أن يكون إلهنا أيضا ألمانيا".

ونشأت في ألمانيا طائفة تتبرأ من سيدنا المسيح عليه السلام لكونه من بني إسرائيل، والذين لا يزالون يدينون له بالحب والتعظيم يجتهدون أن يثبتوا أنه كان من سلالة آرية، وظهرت في ألمانيا نزعة إلى إحياء الآلهة القومية القديمة التي كان يعبدها الشعب الألماني في عهده القديم.

وليست روسيا العالمية بأقل حماسة للعصبية الجنسية والوطنية من منافسها القديم ألمانيا".

ويقول:

"ومما يدعو إلى الأسف والاضطراب، أن هذه العدوى القومية قد سرت إلى بعض الأقطار الإسلامية التي كان يجب وكان من المترقب أن تكون زعيمة لدعوة الإسلام العالمية، حاملة في عصرها لرسالة الأمن والسلام، وأن تكون جبهة قومية ضد القومية والوطنية، وذلك بانحلال الدين في هذه البلاد، وبتأثير الآداب والأوربية والحضارة الغربية، فترى في الترك النزعة الطورانية والدعوة إلى أحياء جاهليتها القديمة وآدابها وثقافتها، والنظرة إلى الدين الإسلامي الذي انتشر على أيدي العرب وشريعة الإسلام وثقافته ولغته نظرة تشبه نظرة ألمانيا الجديدة إلى الأديان التي جاء بها الأنبياء من غير النسل الآري والآداب السامية وثقافتها. فاعتقد بعض المفكرين في تركيا الفتاة أن الإسلام دين طارئ غريب لا يصلح للترك، وأن الأولى بهم أن يرجعوا إلى وثنيتهم الأولى قبل أن اعتنق آباؤهم الدين الإسلامي"[1].

---

[1] ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين للعلامة الندوي، ص:٢٢٨-٢٣٠.ط المجمع الإسلامي العلمي، لكناؤ، ٢٠٠١م.

نموذج من أسلوبه التاريخي:

يقول العلامة الندوي وهو يبين إصلاحات عمر بن عبد العزيز الواسعة في نظام الحكم:

"إن عظمة عمر بن عبد العزيز وعبقريته ليست محصورة في ورعه وزهادته – وهو عظيم في ذلك حقا، ويستحق أن يسمي عبقريا إذا عرفنا ما كان يحف الملوك من الإغراءات وفرص المتعة، وما كان يملكه من الحرية المطلقة – وليست عظمته محصورة في ما كان يؤاخذ به عماله وأمراءه من التورع، إن أعظم ما يمتاز به هو أنه نظر إلى الحكومة نظرة لم ينظرها إلا الرسول وخلفاؤه الراشدون، فقد كانت الحكومة في عهده مقصورة على جباية الأموال وإنفاقها في مصالح الدولة، لاصلة لها بأخلاق الجمهور وعقائده، وأخلاق الناس، ولا شأن لها بالضالة والهداية، وكان الذين يخلفون الرسول الذي أرسل للناس كافة بشيرا ونذيرا وهاديا بإذنه وسراجا منيرا، كان الذين يخلفون هذا الرسول عصابة من جباة الأموال يقيسون كل قضية في هذه الدولة – التي كانوا يسمونها الخلافة – بالمقياس المالي، ولا ينظرون إلى شيئ إلا بالناحية المالية.

ظهر عمر بن عبد العزيز في هذه الأسرة الحاكمة، فثار على هذه النظرة وعلى هذه النفسية، وقال عن الحكومة كلمته المأثورة التي سجلها التاريخ، ولا أعرف كلمة في التاريخ تبين روح الخلافة الراشدة وما تمتاز به عن الحكومة الزمنية أبلغ من هذه الكملة، لقد شكا إليه بعض العمال أن أهل الذمة بدأوا يقبلون على الإسلام في عدد كبير وقد فشا فيهم الإسلام، وأصبحت هذه قضية تشغل عقول "الإداريين" ذلك أن الجزية التي يفرضها الإسلام على أهل الذمة – ولو كان بمقدار طفيف، يتضاءل بجانب ما يتمتعون به من حقوق، وما يعفون عنه من خدمات – من أعظم موارد بيت المال، فإذا أسلم هؤلاء سقطت عنهم الجزية، وخسرت مالية الدولة الإسلامية خسارة باهظة، بلغت هذه الشكوى عاهل الدولة الإسلامية، فأجاب عنها في هدوء وثقة، وكتب إليه: "إن الله جل ثناؤه بعث محمدا صلى الله عليه وسلم داعيا إلى الإسلام ولم يبعثه جابيا".

وعلى هذا الأساس وعلى هذه النظرة قامت دولته، وهو أساس "الهداية" التي بعث لها النبي صلى الله عليه وسلم، وبهذه النظرة كان ينظر إلى قضايا الحكومة ومصالحها، وهي نظرة "المرشد" ونظرة "الداعي" ونظرة خليفة الرسول الهادي، وذلك مفتاح شخصية عمر بن عبد العزيز الذي نستطيع أن ندخل به إلى رحاب هذه الشخصية الفذة في الإسلام، الفذة في الإسلام"[١].

نموذج في الموضوع الديني:

يقول العلامة الندوي في كتابه "الأركان الأربعة":

"وكذلك وردت نصوص وإشارات في هذه الكتب – وشهد العلم والتجربة بصحتها – بوصف هذا الإنسان المخلوق، وبيان ما فطر عليه، وتركبت به طبيعته من أضداد ومتناقضات، فليس هناك مخلوق – على كثرة المخلوقات والموجودات – أدق وأعمق منه صنعا، وأكثر منه غرابة وغموضا، وأعظم منه تناقضا وتضاربا، فهو ضعيف يحب القوة والغلبة، فقير يحب الغنى والخير، خاضع لناموس الموت والفناء، محب للخلود والبقاء، متعرض للأمراض والأخطار، ولوع بالصحة والسلامة، هلوع جزوع، ولوع طموح، كثير الحاجات، دقيق الرغبات، عميق الهواجس والخواطر، بعيد الآمال والنظرات، لا تروى غلته ولا تشبع جوعته، ملول طرف، سؤوم ضجر، يكره القديم التليد، ويطلب المزيد الجديد، ويزهد في الميسور الموجود، ويرغب في المعدوم المفقود، حاجاته ومطامعه أكثر من أنفاسه، وأطول من حياته، وأوسع من أن يسعها هذا العالم المحدود.

وفي هذا التناقض الغريب، والصراع العنيف، وفي هذا الطموح البعيد، والحرص والنهامة، والطلب والاستزادة، سر شرفه وكرامته، واصطفائه وخلافته، وبه استطاع أ، يتسلم الأمانة التي اعتذرت عنها المسوات والأرض والجبال "فأبين أن يحملنها وأشفقين

---

[١] رجال الفكر والدعوة في الإسلام للعلامة الندوي، الجزء الأول، ص:٣٦-٣٧، ط:دار القلم، الكويت، الطبعة التاسعة، ١٩٩٣م.

منها وحملها الإنسان" [الأحزاب:٧٢]، وبه استحق الخلافة في هذه الأرض، ووصل إلى أسمى مكان تحسده عليه الملائكة المقربون"[١].

نموذج للموضوع الأدبي:

ينقل العلامة الندوي شعر إقبال الأردي إلى النثر العربي:

"أيها العرب قد من الله عليكم، إذ جعلكم مثل السيف البتار، أو أحد منه، وكنتم فيما قبل ترعون الإبل في الصحراء، تركبون عليها، وتظعنون بها، ثم انعكست الآية، فسخر الله لكم المقادير، فضلا عن الإبل، فأصبحتم من مالكي أعنتها، فلو أقسمتم على الله لأبركم، وهنالك دوت تكبيراتكم وصلواتكم، وزمزمت جلبة حروبكم ومغازيكم بين الخافقين، فارتج بها ما بين الشرق والغرب، فما أحسن تلك المغامرات، وما أجمل تلك الغزوات".

"اسفا على هذا الخمود والجمود، أيها العرب! ألا ترون إلى الأمم الأخرى، كيف تقدمت وسبقت! أما أنتم فما قدرتم قدر هذه الصحراء التي نشأتم فيها، وهذه الحرية التي ورثتموها، كنتم أمة واحدة، أمة الإسلام، فصرتم اليوم أمما، وكنتم حزبا واحدا، حزب الله، فأصبحتم أحزابا، لقد فرقتم جمعكم، ومزقتم شملكم، وانقسمتم على أنفسكم".

"اعلموا أيها السادة! أن من ثار على شخصيته وكرامته، وفقد الثقة بنفسه مات محي من الوجود، ومن فر من معسكره وانحاز إلى صفوف الأعداء، وتطفل على مائدتهم، عوقب بالهوان والشقاء والطرد والجلاء، ألا إنه لم يجن عدو على عدو مثل ما جنيتم أنتم على أنفسكم، ولم يسيئ أحد إلى أحد إساءتكم إلى أمتكم، إنكم آذيتم روح رسول الله صلى الله عليه وسلم بصنيعتكم، فهي متألمة متوجعة شاكية مستغيثة"[٢].

---

[١] الأركان الأربعة للعلامة الندوي، ص:١٦-١٧، ط:دار القلم،دمشق ط:١٩٩٩م.

[٢] روائع إقبال للعلامة الندوي، ص:١٢٧-١٢٨، ط:المجمع الإسلامي العلمي لكناو، ٢٠٠٤م.

الفصل الرابع

ميزات أسلوب الندوي في كتاب "ماذا خسر العالم"

١. لغة سهلة بسيطة فصحى: مجالات اختصاص الشيخ الندوي عديدة، حتى لا يمكن حصرها في واحد أو اثنين، فشخصيته ممتازة عن غيره بهذا التنوع الاختصاصي، وقد ظهر هذا التنوع في مؤلفاته ومحاضراته، أما المؤلفات فقد ظهرت في الفكر، والأدب، والتاريخ، والتربية، والدعوة، وهي خير دليل على اهتمامه بالجوانب الفكرية المتعددة في الاجتماع، والدين، والأدب. وكل هذه الموضوعات مرتبطة بشأن الأمة المسلمة، في تاريخ فكرها وحالتها الاجتماعية والخلقية، وفي أسسها التعبدية، ومقتضيات الدعوة والتربية لها، مع بيان المثال الرائع والأسوة العالية من حياة رعيل الأمة الإسلامية الأول، وكان هذا الرعيل حامل الأمانة المعروضة على خلق الله سبحانه كله ولكنهم أبوا أن يحملوها، والتي نعبر عنها بخلافة الله في الأرض، وسار أخلافهم على طريق ذلك الرعيل، والشيخ الندوي يكتب حول موضوعات فكرية، وذلك يقتضي أن يحمل صاحبها مؤهلات علمية أدبية فكرية، وصدق الندوي على هذا المستوى كاملا سويا، ويتضح ذلك عندما نفكر في خلفية الندوي وبيته العائلية، فهو نجل عالم أديب مؤرخ العلامة عبد الحي، ألف "نزهة الخواطر" حول أعلام الهند، وذلك في ثمانية مجلدات، فحصلت للندوي بيئة تاريخية، وفرصة الاستفاضة في دراسة الموضوعات التاريخية، ولما أن أباه كان أديبا للأردية والعربية، وخير شاهد على ما قلنا أسلوبه الذي اتخذه في "نزهة الخواطر"، بالأردية "ياد ايام" و "كل رعنا". واصل الندوي دراسته للعلوم الدينية مع اشتغاله بالأدب والتاريخ، وساعد في صقل ذهنه أساتذة كانوا متخصصين في مجالاتهم، فعندما دخل الندوي المرحلة التأليفية ساعده في تأليف الكتب القيمة اطلاعه على التاريخ، وثقافته والواسعة وخبراته، وكانت له يد طولى في مجال الأدب، وفي الكتابة بأسلوب واضح شيق وبالعربية الفصحى بمعنى الكلمة. نرى

هذه الفصاحة وهذا الوضوح يتجلى حينما يدرس القارئ هذا الكتاب فإنه كما يستفيد بالمعاني يجد كذلك بيانه شيقا ويشعر بأنه أقرب إلى الأدب، مع أن الكتاب موضوعه فكري وتاريخي، ومثل هذه الموضوعات يقدم الناس معانيها بأسلوب بسيط دون تعرض للتعبير الشيق[١]. أسلوب سماحة الشيخ الندوي في باكورته هذه (ماذا خسر) يتميز ويتكيف بالمباحث فيتغير لأن موضوع الكتاب تاريخ وتفكير وتحليل واستنتاج، وتنعكس هذه العناصر على الأسلوب مجتمعة تارة، وعلى انفراد تارة أخرى ، وهي التي كانت تحمله على اختيار أسلوب رائق للموضوع الذي كان ينشده في مؤلفاته حتى أصبحت تشوب مضامين كتاباته الفكرية مسحة أدبية، وذلك بدون مبالغة أو مغالاة فيها، إن دراسته ومطالعته للكتب الفكرية والمؤلفات الدينية والعلمية الجادة كانت في مكانتها من القوة والدقة، أما ملكته التعبيرية فقد كانت ثمرة لمطالعته للكتب الأدبية.

٢. الالتزام بأسلوب أدبي: إذا كان الموضوع موضوعا أدبيا فقد كان يظهر فيه في مظهر أديب بارع، ومحقق للأدب، فنحن إذا رأينا كتابه في نقله لشعر إقبال في النثر العربي وجدناه أنه اعتنى اعتناء كاملا وبليغا في نقل المغزى وحسن أدائه في شعره، وكان في ذلك ناجحا، وبذلك استطاع المحافظة على الروعة الشعرية التي أسبغها الشاعر على كلامه باللغة الأردية عند نقل مضامين شعره إلى اللغة العربية بحيث أنه لو أضاف إلى هذا الكلام المنقول من اللغة الأردية إلى العربية وزنا وقافية، لم يكن أقل من شعر إقبال في روعته وأصالته الأدبية في اللغة العربية منقولة من اللغة الأردية.

٣. الالتزام بأسلوب فكري: في الكتب العلمية والفكرية، فهو يلتزم بأسلوب المفكرين القدامي البارعين في أداء المعاني في أسلوب سلس، أما إذا كانت المعاني دعوية وتربوية فكان يسبغ عليها مسحة بيان وتأثير، ويريد بذلك تأثيرا في نفوس القراء

---

[١] من مقال للشيخ محمد الرابع الحسني الندوي، نشر في المسحة الأدبية لمحمد واضح رشيد الندوي ص:٦-٨، طبعة رابطة الأدب الإسلامي العالمية، لكناؤ، ٢٠٠٤م.

أو السامعين، تشهد بذلك رسائله ومحاضراته التي كتبها في مجال التوجيه والدعوة، وبذلك كان سماحته مفكرا، محققا علميا كذلك، وداعية وأديبا كذلك، فالقارئ لكتاباته يستفيد من فكره، ويتأثر بتوجيهاته، ويتمتع بأسلوبه وجميل أدائه للمضمون، واعترف بذلك العلماء العرب ذوو معرفة بالأدب من قراء كتاباته، لقد ذكروا ذلك باستحسان ما وجدوه وتذوقوه في كتبه ومؤلفاته"[١].

٤. هناك عنصر هام يكسب أسلوب الندوي صفة متميزة، وذلك العنصر يتمثل في حرص المؤلف على سعادة الإسلام والإيمان بخلود رسالته. إنه يدرس التاريخ دراسة موضوعية ثم يحلل حصاد دراسته تحليل باحث إسلامي ويستنتج من زاوية نظره الإسلامية النزيهة بأسلوب علمي متميز لا تحامل فيه ولا تعصب. السيد قطب يورد مقتطفات من هذا الكتاب في تفسيره "في ظلال القرآن": "يقول الأستاذ أبو الحسن الندوي في كتابه "ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين" عن هذه القيادة الخيرة الفذة في التاريخ كله، وتحت عنوان "عهد القيادة الإسلامية" "الأئمة المسلمون وخصائصهم: ظهر المسلمون وتزعموا العالم، وعزلوا الأمم المزيقة من زعامة الإنسانية التي استغلتها وأساءت عملها وساروا بالإنسانية سيرا حثيثا متزنا عادلا. وقد توفرت فيهم الصفات التي تؤهلهم لقيادة الأمم وتضمن سعادتها وفلاحها في ظلهم وتحت قيادتهم. إن الإنسان جسم وروح، وهو ذو قلب وعقل وعواطف وجوارح، لا يسعد ولا يفلح ولا يرقى رقيا متزنا عادلا حتى تنمو فيه هذه القوى كلها نموا متناسبا لائقا بها، ويتغذى بها غذاء صالحا، ولا يمكن أن توجد المدنية الصالحة البتة إلا إذا ساد وسط ديني خلقي عقلي جسدي يمكن فيه للإنسان بسهولة أن يبلغ كماله الإنساني، وقد أثبتت التجربة أنه لا يكون ذلك إلا إذا كانت قيادة الحياة وإدارة دفة المدينة بيد الذين يؤمنون بالروح والمادة،

---

[١] المسحة الأدبية لمحمد واضح رشيد الندوي ص:١٠-١١.

ويكونون أمثلة كاملة في الحاية الدينية والخلقية، وأصحاب عقول سليمة راجحة وعلو صحيحة نافعة. (ماذا خسر العالم ص:١١٩)[١].

٥. اتباع أسلوب خاص: الكتابة حول أي موضوع تتطلب أتباع أسلوب خاص به، ولا يتسنى ذلك إلا لكاتب قدير مثل الندوي، فقد تميزت أساليبه عن بعضها البعض من كتاب إلى آخر حسب موضوعه، ولكنها ليست متباينة وإنما هي متميزة بعضها عن بعض تميزا يتمشى مع الموضوع، ولابد من أن يؤخذ بعين الاعتبار أن هناك روحا جوهرية تلازم هذه الأساليب ولا تفارقها وإذا فارقتها فلا يطول فرقها، ولعل هذه الروح الجوهرية تتمثل فيما تفيض به مؤلفاته وكتبه من حيوية وحماسة للإسلام لأنه يكتب – كما أشار إليه الأستاذ فاروق حماده في التنوية بأساليب سماحته – بمداد الفؤاد ونور اليقين الذي ملأ أقطار قلبه[٢].

٦. الأسلوب العصري: وذلك في عرض المادة التاريخية، بأن يتبع طريقة علمية، مستفيدا في ذلك من خير ما كتب في القديم والحديث، مما أسس على المصادر الأصلية، كما أنه لا يحشد المعلومات دون نقد وتمحيص، فهو يخضع المعلومات التي يسوقها للنظر، وينص على ذلك في مقدمته منتقدا "الأسلوب الذي اعتاده أكثر المؤلفين المتوسطين والمتأخرين، وقليل من المؤلفين المتقدمين، والذي كان مثار كثير من التساؤلات. ويشير المؤلف إلى أنه لا يتبع هذا الأسلوب تقليدا للاتجاهات العصرية من حيث هي اتجاهات عصرية، أو خضوعا لكتابات المستشرقين، وأقوال المشككين، وإنما هو يفعل ذلك تمشيا مع كل ما يطابق المصادر الدينية.

وهو في كل ذلك يكتب مراعيا عقلية الجيل الجديد، وذوقه، ومستوى فهمه، ونفسيته على حد تعبير المؤلف نفسه، دون أن يعني ذلك أنه يخضع كتاباته للأهواء،

---

[١] السيد قطب: في ظلال القرآن، تفسير سورة العصر، ٩٤/٨.

[٢] ثقافة الهند، المجلد ٥٢، العدد ٤، ٢٠٠١م (عدد ممتاز عن الندوي)، مستفاد من مقال عميد الزمان الكيرانوي، ص٢٨٠.

والأغراض، أو النظريات العلمية المتغيرة، أو يتأثر بالشبه والاعتراضات، التي تثار أحيانا بدوافع مختلفة[١].

٧. تتميز كتابات الشيخ الندوي بكونها (دعوية) في موضوعاتها، وكان هدفه العمل على إصلاح واقع الأمة الإسلامية، بمعالجة قضاياها ومشكلاتها المعاصرة على أساس من فصول الشريعة الإسلامية.

٨. تشكل هذه الكتابات بجملتها صورة متكاملة لمنهج الشيخ في الدعوة الإسلامية، ومجالات نشاطه الدعوي، ونظرته إلى واقع العالم عامة، وإلى واقع الأمة الإسلامية خاصة.

وظهر من خلال هذه الدراسة أثر ثقافته الواسعة، ولاسيما معرفته بعدد من اللغات، لغة أردو وهي لغته الدينية، واللغة العربية وهي لغته الدينية، إضافة إلى الإنكليزية والفارسية، وكان أيضا لبيئته وروح العصر أثر واضح في مقالاته.

٩. يتسم المنهج الدعوي للشيخ بالشمولية في نظرته إلى واقع الأمة الإسلامية في أن إصلاحه لا يتم جزئيا، ولذلك عني بالدعوة إلى جوانب حياة المجتمعات الإسلامية.

١٠. تتسم محتويات كتاب "ماذا خسر العالم" بترابط أجزائها، في إطارها العام، وتتفاوت من حيث الطول والقصر، فبعضها قصير، أقل من صفحتين إلى أربع صفحات ، وذلك قليل في عينة الدراسة فإن كتابات الشيخ تتميز بالطول وبعضها نشر في حلقتين أو أكثر، وكثير منها يأخذ شكل بحث قصير.

١١. يتسم أسلوب الشيخ على المستوى اللفظي بالوضوح، فألفاظه فصيحة واضحة المعاني، وقد استمد مادة معجمه اللفظي – اللغوي – من مصادر ثقافته، وفي مقدمتها الكتاب، والسنة، ثم كتب التراث العربي الإسلامي، التاريخية، والأدبية، والفكرية، وثقافة عصره.

---

[١] الشيخ أبو الحسن الندوي: بحوث ودراسات رابطة الأدب الإسلامي العالمية، مكة المكرمة، طبعة مؤسسة الرسالة ودار البشير، ص:٤٦٨-٤٧٢.

١٢.كما يتسم أسلوب الشيخ على المستوى التركيبي بالسهولة والوضوح، في أساليب التركيب اللغوية والبلاغية،

١٣.ويتميز أسلوب الشيخ بالإطناب في العبارة، في كثير من الأحيان، ومن مظاهره التكرار والترديد، والسبب في ذلك إلحاح الشيخ في التعبير بدافع الحرص على تبسيط أسلوب أداء المعاني والأفكار، في بثه الكتابي للتواصل مع المتلقي.

١٤.يكون الشيخ في أسلوب أدائه التعبيري قريبا من المتلقى، فكثيرا ما يستخدم ضمير جماعة المتكلمين (نحن) أو (أنا) الدالة عليهم وذلك أدعى لجذب المتلقي، وتفاعله مع المقالة.

١٥.وعلى المستوى التصويري يستعمل الشيخ الصور الجزئية، والبيانية، وغير البيانية في التعبير عن المعاني، والأفكار الجزئية في سياق المقالة، وغالبا ما تميل إلى التجسيد والتشخيص والتجسيم في التعبير عن المعاني المجردة بقصد توضيحها.

١٦.تتشكل في سياق كثير من محتويات الكتاب صور كبرى، على مستوى فقرة أو مقطع، فيتألف بناؤها في وحدة مكتملة العناصر الفنية، بما فيها الصور الجزئية، وأحيانا تشكل هذه الصورة مشهدا، تصويريا أو وصفيا بأسلوب السرد الإخباري، حسبما يقتضيه السياق، فتسهم مثل هذه الصورة في تحقيق وحدة الموضوع.

١٧.وتتشكل في محتويات الكتاب موسيقى تظهر إحساسه بإيقاع المعاني وتجاوبها في نفسه في التراكيب اللغوية، وتوازنها مع تناسب المعاني وترابطها في الأنساق اللغوية، والبلاغية، والأداة الأساسية في ذلك الألفاظ المناسبة في إيقاعاتها الصوتية، ومعانيها في التراكيب.

١٨.ومن السمة العامة في الكتاب عنايته بالمعاني والأفكار، ولذلك يسخر لها أدواته ووسائله التعبيرية، ومن مظاهر أسلوبه في ذلك التدقيق في حزئيات المعنى والفكرة، وذلك بطبيعة أسلوبه التعبيرية، بدافع الاهتمام بإقناع المتلقي بالأدلة والبراهين، وفيستعمل الشاهد والمثل، والصورة الفنية.

١٩.من أبرز القضايا التي عني بها الشيخ النظرة إلى الحضارة الغربية الحديثة، والموقف منها، فيدعو الشيخ إلى الاستفادة علميا من الحضارة الغربية، على أن تصاغ صياغة تتفق ومبادئ الشريعة الإسلامية.

٢٠.وثمة قضايا ومسائل عني بها الشيخ في مجالات التراث والثقافة والأدب والتعليم، ومن ذلك الإصلاح.

٢١.عني الشيخ أبو الحسن في كتاباته بدور الأدب وصلته بحياة المجتمع والأمة، ووقف عند مشكلة تسلط وجريدتهم في تكريس التقليدية والسلطحية في الدرس الأدبي، وأنهم كانوا سببا في عدم الاهتداء إلى مصادر الأدب الطبيعي، ومن كتب السنة والسيرة النبوية، مما اشتملت عليه من روايات الحديث النبوي، وكذلك كتب التراث في مختلف المعارف غير الأدبية، فقد كانت متونها نصوصا من الأدب الطبيعي، الذي لا يعرف التكلف أو التصنع، وإلى ذلك أدب الرسائل الأباء المحترفين لصناعة الأدب، وبذلك كان الشيخ أبو الحسن في مقدمة النقاد والأدباء المسلمين المعاصرين، فضلا عن ريادته في الدعوة إلى الأدب الإسلامي والتنظير له، وإن كتاباته لمما يشهد بذلك، فهي الصورة الفعلية والتطبيق العملي في توظيف الأدب التوظيف الأمثل في الدعوة الإسلامية.

ويؤخذ على أسلوب الشيخ:

- الإسهاب في بعض الأحيان، مما يسبب تداخلا بين فكرة وفكرة، أو الخروج من معنى أو فكرة في سياق الموضوع، وأحيانا يطيل الكلام بين بداية الجملة ونهايتها، وربما لا يأتي على نهاية الجملة، فيسبب ذلك اضطرابا في بعض المواضع من سياق الموضوع.
- يلاحظ في أسلوب الشيخ في النقل، أنه أحيانا لا يشير إلى المصدر، وقد يذكر اسمه في المتن فحسب، وإذا ما ذكر المصدر والصفحة في الحاشية لا يذكر معلومات النشر، وسواء في ذلك النقل بالفكرة أم بالنص مما يجعل من الصعب الاهتداء إلى مصدره.

وربما كان سبب ذلك هو السهو أو عدم الاهتمام من القائمين على الطباعة والنشر، وقد يكون النقل من محفوظات الشيخ فيورده دون إحالة مفصلة إلى المصدر.

الفصل الخامس

منهج وركائز الندوي في تأليف كتاب "ماذا خسر العالم"

١. اختيار العناوين اللطيفة الجامعة: يختار الندوي عناوين تعبر عن المحتوى المذكور أحسن تعبير، يقول الدكتور شكري عضو المجمع العلمي العربي بدمشق وأستاذ جامعة دمشق والمدينة المنورة بصدد حديثه عن مميزات كتابه ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين: "إن سماحته يستثمر التراكيب المرانية والعربية استثمارا واسعا ويختار العناوين ويلونها اختيارا وتلوينا طريفين". وأعتقد أن هذه ملاحظة هامة تعبر عن ظاهرة ليست مقصورة على هذا الكتاب وإنما هي ظاهرة عامة من أسلوب سماحته.

وضع عنوانات دالة منهج سار عليه المؤلف في كل مراحل الكتاب وأقسامه، وهي عنوانات تكشف عن الفهم العميق لروح الكليات الإسلامية، وتوجز كثيرا من المعاني والمفاهيم الأصيلة والمعبرة، المنطوية على العظة، والخلاصة، أو النتيجة التي يعبر عنها الموضوع الذي وضع له المؤلف هذا العنوان، أو ذلك.

وهذه العنوانات ذات دلالة أخرى على ما يتمتع به الشيخ الندوي من حس لغوي، وقدرة أدبية في تعبيره العربي، عن المفاهيم والدلالات، ويعكس ما تتمتع به لغته من رشاقة الألفاظ، وسلامة العبارة، ودقة الاستخدام.

والقارئ يستطيع أن يحس بذلك عند قراءة بعض عناوين كتابه على سبيل المثال فيما يلي:

الإنسانية في الاحتضار، ظهر الفساد في البر والبحر، لمعات في الظلام، النظام السياسي والمالي في العصر الجاهلي، الملكية المطلقة، الحكم الروماني في مصر والشام، نظام الجباية والخراج في إيران ، الاضطهاد والاستبداد ، المدنية المصطنعة والحياة المترفة، الزيادة الباهظة في الضرائب، بين غنى مطغ وفقر منس، من الجاهلية إلى الإسلام، منهج

الأنبياء في الإصلاح والتغيير، العالم الذي واجهه محمد، نواحي الحياة الفاسدة، لم يكن الرسول رجلاً إقليمياً أو زعيماً وطنياً، لم يبعث لينسخ باطلا بباطل، قفل الطبيعة البشرية ومفتاحها ، رحلة المسلم من الجاهلية إلى الإسلام، دفاع الجاهلية عن نفسها، في سبيل الدين الجديد، انحلت العقدة الكبرى ، أغرب انقلاب وقع في تاريخ البشر ، وخز الضمير، طاقة زهر ، كلكم راعٍ وكلكم مسئول عن رعيته ، نوادر الحب والتفاني ، كيف حول الرسول خامات الجاهلية إلى عجائب الإنسانية، كتلة بشرية متزنة ، الجمود العلمي في تركيا ، الانحطاط الفكري والعلمي العام ، معاصرو العثمانيين في الشرق، تخلف المسلمين في مرافق الحياة ، الفرق بين حكم الجباية ، وحكم الهداية، ويتعلمون ما يضرهم ولا ينفعهم ، المسلمون على علاتهم موئل الإنسانية وأمة المستقبل.

٢. الاستشهاد بالآيات الكريمة، والأحاديث الشريفة، وذلك بصورة كثيرة وشاملة، وهو أمر ملحوظ لقارئ الكتاب.

٣. أجزاء من السيرة النبوية: كتاب "ماذا خسر" من خير الأمثلة التي تكشف مدى تغلغل فاعلية سيرة النبي صلى الله عليه وسلم، ورسالته في تفكير الندوي، في الحضارة، ونظرته إلى مسيرة الإنسانية، وما تعانيه من انحطاط، وخسران بسبب انحطاط المسلمين، وماذا تربحه الإنسانية والمدنية برقيهم ونهضتهم، وكان يرى أن ذروة رقى الإنسانية هو عهد الرسول وأصحابه، ولهذا وجدنا هذا الكتاب يتحول في أجزاء من أبوابه، وفصوله إلى مباحث وتجربة المسلمين في أخذهم بالإسلام في عهده[١].

٤. اهتمامه بتصوير البيئة والعصر الذي ظهر فيه الإسلام: ولعل هذا أيضا مظهر لمنهجه العصري، وأثر من استفادته من الدراسات الحديثة التي تهتم بالبيئة، والظروف السائدة، التي يبرز في جوها الحادث العالم الكبير، ومن هنا تحدث عن العصر الجاهلي، وبخاصة بيئته الدينية عامة، في القرن السادس المسيحي، وكذلك تحدث عن جزيرة العرب قبل البعثة، ومكة زمن البعثة، وعند ظهور الإسلام، وقد

---

[١] في مسيرة الحياة ١/١٧٤-١٧٥.

اهتم جدا بهذا الجانب. وقد أبرز المؤلف أهمية الحديث عن هذه الموضوعات، وفصل الكلام عن ذلك في مقدمة كتابه، مبينا أنه لا يسعه صرف النظر عن البيئة، وأنه لابد من وصف الجاهلية المهيمنة على العالم في القرن السادس المسيحي، وما كان عليه ذلك العصر من فساد وانحطاط في جوانب مختلفة من الحياة.

٥. التوازن بين الجانب العلمي والجانب التربوي البلاغي: فالمؤلف حاول أن يجمع كتابه بين هذين الجانبين، بحيث لا يطغى جانب منهما على الآخر، وقد بدا الجانب العلمي، في عرضه للسيرة النبوية، العرض الأمين الموثق من المصادر التاريخية الأصلية، وبدا الجانب التربوي في العرض البلاغي المؤثر، والصياغة الأدبية الرشيقة، التي هي القالب البياني لموضوعات السيرة والتاريخ، فاشتمل كتابه – على حد قول المؤلف نفسه – "على أكبر مقدار من القطع النابضة الدافقة بالحيوية والتأثير، الآسرة للقلوب والنفوس، التي لا يوجد نظيرها في سيرة إنسان، ولا في تاريخ فرد أو جيل، أو دعوة أو دين، وذلك كله من غير تنميق، أو تلوين، أو تحبير، أو تحسين، فجمال الطبيعة والحقيقة، لا يحتاج إلى تجميلات خارجية، أو تزيينات صناعية".

واهتمام المؤلف بهذين الجانبين، يتفق تماما مع مهمته الأساسية الملازمة للشيخ أبي الحسن الندوي وهي الدعوة، وبيان مزايا هذا الدين، وتقريبه إلى الناس، وتقريب الناس إليه، بما فيه من جمال ذاتي، وجمال أدبي بلاغي.

٦. تجاور العقل والعاطفة في الكتاب: بحيث لا يطغى أحدهما على الآخر، ولا يكون أحدهما على حساب الآخر، والندوي يكتب بعاطفة جياشة،

ويستطيع القارئ، بكل سهولة، إدراك هذا العنصر الواضح في كتاب المؤلف، ولكنه على الرغم من ذلك استطاع أن يوازن في كتابه بين هذا الدفق العاطفي الإيجابي وبين البحث العلمي، ومتطلبات العقل السليم، ولا يغيب عنه أنه يكتب هذا الكتاب للجميع، للمؤمنين إيمانا قويا، ولمتوسطي الإيمان، ولغير المؤمنين الذين يطمح المؤلف أن يدركهم لطف الله، ومن هنا فهو يكتب بمنطق سليم، ليستدرج بذلك أهل

العقول والمنطق السليم للدخول في رحاب الإيمان، وقد أوضح المؤلف هذه المسألة في منهجه في مقدمة كتابه في قوله: "ثم يتجلى فيه العقل والعاطفة جوارا بجوار، فلا يكون فيه البحث العلمي، والنقد التحليلي، على حساب العاطفة والحب والإيمان، فإنه إذا تجرد الكاتب من العاطفة والحب والإيمان، كان خشبيا مصنوعا، لا حياة فيه، وكذلك يجب ألا يكون العنصر العاطفي العقائدي على حساب المتطلبات العقلية السليمة، التي نماها هذا العصر بصورة خاصة وعلى حساب المنطق السليم، الذي لم يتجرد منه عصر من العصور، فيكون كتاب عقيدة وتقليد فحسب، لا يطيق قراءته، ولا يسيغ ما جاء فيه إلا الأقوياء في الإيمان، والراسخون في الإسلام، من الذين نشؤوا في بيئة دينية خالصة لا شأن لها بالعالم الخارجي، وبالثقافة العصرية ".

٧. التحليل والتعليق، والتوجيه، والمقارنة، والاستنتاج: وهذه الجوانب تعد أثرا لثقافة الندوي الإسلامية، العميقة، ومنهجه الدعوي، القائم على فكر منطقي، ونظرة موضوعية، فهو أحيانا يحلل بعض الموضوعات، ويعلق على ذلك، من مثل تحليله للعصر الجاهلي، وبخاصة فيما يتصل بالوضع الديني في القرن السادس المسحيي، وحديثه عن فضل البعثة المحمدية على الإنسانية، ومنحها العالمية الخالدة.

٨. تعميق الإيمان في مواجهة المادية:

من ركائز فقه الندوي الدعوية الفكرية المحورية التي تخللت في كتابه "ماذا خسر" تعميق الإيمان بالله تعالى، وتوحيده سبحانه، ربا، خالقا، وإلها معبودا، واليقين بالآخرة، دارا للجزاء، ثوابا وعقابا، في مواجهة المادية الطاغية، التي تجحد أن للكون إلها يدبره ويحكمه، وأن في الإنسان روحا هي نفحة من الله، وأن وراء هذه الدنيا آخرة، المادية التي تقول: إن هي إلا أرحام تدفع، وأرض تبلع، ولا شيئ بعد ذلك، أو كما حكى الله عنهم: "وقالوا إن هي إلا حياتنا الدنيا وما نحن بمبعوثني"، (الأنعام:٢٩).

٩. إعلاء الوحي على العقل:

ركيزة فكرية وردت في كتابه "ماذا خسر" هي اعتبار الوحي هو المصدر المعصوم، الذي تؤخذ منه حقائق الدين وأحكامه، من العقائد والشرائع والأخلاق، واعتبار نور النبوة فوق نور العقل، فلا أمان للعقل إذا سار في هذا الطريق وحده من العثار، ولا أمان للفلسفات المختلفة في الوصول إلى تصور صحيح عن الألوهية والكون والإنسان والحياة، حتى الفلسفة الدينية أو علم الكلام حين خاض هذه اللجة غرق فيها، وقصور العقل هنا شهد به بعض كبار المتكلمين، كالفخر الرازي، والآمدي غيرهما، وبعض كبار الفلاسفة، وأحدثهم "كانت" وكذلك فلسفات الإشراق لم تصل بالإنسان إلى بر الأمان، وقد بين ذلك الشيخ الندوي في كتابيه "ماذا خسر" و "النبوة والأنبياء في ضوء القرآن" في مواضع عديدة.

١٠.توثيق الصلة بالقرآن والسنة والسيرة النبوية:

توثيق الصلة بالقرآن والسنة والسيرة، ركيزته الدعوية باعتباره الأول كتاب الخلود، ودستور الإسلام وعمدة الملة، وينبوع العقيدة، وأساس الشريعة، وهو يوجب اتباع القواعد المقررة في تفسيره، وعدم الإلحاد في آياته، وتأويلها وفق الأهواء والمذاهب المخولة، ولهذا أنكر على القاديانيين هذا التحريف في منهج القرآن، وأما السنة فلما أنها مبينة القرآن وشارحته نظريا، والسيرة هي التطبيق العملي للقرآن، كما قالت عائشة: كان خلقه القرآن وقد بين الشيخ أثر الحديث في الحياة الإسلامية، كما أبدع في كتابه السيرة، وهو هنا يجمع بين عقل الباحث المدقق، وقلب المحب العاشق، ونجد هذا مبثوثا في كتابه "ماذا خسر" ومؤلفاته الأخرى[١].

١١.الشعور التاريخي:

كان الندوي يؤمن بخلود الإسلام عالميته، ومنطلقا من هذا درس التاريخ دراسة وافية، واطلع على ماله وما عليه، وأعمله في كتاباته ومحاضراته، المؤرخون لم

---

[١] الشيخ أبو الحسن الندوي: بحوث ودراسات، ص:٣٣-٣٦.

يكونوا متنبهين لمسئولية الإنتاج، وخطورة الموضوع وضخامته، ودقة المهمة وهذا كل ما يرسم خطوطا أساسية للدراسة[١].

١٢. الشعور الواقعي:

الإسلام دين ومنهج الحياة الواقعي بتقريره طبيعة البشرية وامتزاجه بالشعور، لأن له ثوابت أساسية وهي الأصول الشرعية، وله روافد سخية مستمرة تحيي الفروع الشرعية وتغذيها، وهي تعيد إلى الإسلام الحيوية والقوة، وكثيرا ما يرد ذكر هذه الروافد في كتاب الندوي المذكور[٢].

١٣. الحضارة الإسلامية هي الحضارة الإنسانية:

ينظر الندوي الى الحضارة الزائفة نظرة الناقد العاقل، فهو بشبهها بخشب ليس بداخله روح ولا حيوية، كما أنه يصف الحضارة الإسلامية بأنها حضارة إنسانية خالدة ولها روح وجسد، وروحها هو إطارها العقدي الذي يرمز إلى الحيوية وانشاط، كما قال الندوي ناقلا عن المفكر: "الإسلام قد حمل إلى الهند مشعلا من نور"[٣]. وإطارها هو الإيمان بالله، وتحرير البشرية من الوثنية وعبودية العباد، وقيام الوحدة الإنسانية العالمية، ولكن الحضارة الغربية قائمة على المادية البحتة.

١٤. الموقف التعاوني:

الحضارة الغربية مجموع عقائد ومناهج فكرية ونظم سياسية اقتصادية، وإزاء العالم الإسلامي مواقف ثلاثة من هذه الحضارة، أولها أن يرفضها رفضا كاملا لينتج ذلك عن تخلفها، وهذا موقف سلبي، وثانيها الموقف التقليدي، وهو أن تقبل هذه الحضارة الغربية برمتها، كما فعلت تركيا في عهد أتاترك ومصر في عهد جمال[٤]. والموقف الثالث الموقف التعاوني أو الجمع بين القديم الصالح والجديد النافع، دون رفض تام أو أخذ تام، بل الحكمة ضالة المؤمن فحيث وجدها فهو

---

[١] رجال الفكر والدعوة ١٣/١.

[٢] رجال الفكر والدعوه ١٣/١.

[٣] ماذا خسر، ص:١٨١.

[٤] ألوان لطه حسين، دار المعارف، مصر، ١٩٨١م، ص:٥٠.

أحق بها، وهو معنى "خذ ما صفا ودع ما كدر"، وهذا موقف الندوي والمؤسسات التي ظل متصلا بها طيلة حياته، وقد فصل ذلك في كتابيه "ماذا خسر" و "الصراع بين الفكرة الإسلامية والفكرة الغربية".

١٥. إعداد الجيل المسلم الغيور بالإسلام:

يعتبر الندوي الشباب المسلم الغيور بالدين المعول الحقيقي على كيان الإسلام، يقف في وجه العدو كالسد المنيع، وسماه "أولو بقية". ثم يشير إلى شباب العرب بإصبعه لأنه عاكف على شهواته وتدور حياته حول المادة والمعدة[١].

١٦. إشعال الجذوة الروحية (الربانية الإيجابية):

والركيزة الخامسة: هي إشعال الجذوة الروحية في حنايا المسلم، وإعلاء (نفخة الروح) على قبضة الطين والحمأ المسنون في كيانه، وإبراز هذا الجانب الأساسي في الحياة الإسلامية الذي سماه الشيخ (ربانية لا رهبانية) وهو عنوان لأحد كتبه الشهيرة. وقد سماه بهذا الاسم لسببين:

أولهما: أن يتجنب اسم (التصوف) لما علق به من شوائب، وما ألصق به من زوائد، على مر العصور، وهذا من (جناية المصطلحات) على الحقائق والمضامين الصحيحة. وما التصوف في حقيقته إلا جانب (التزكية) التي هي إحدى شعب الرسالة المحمدية، أو جانب (الإحسان) الذي فسره الرسول في حديث جبريل الشهير.

والسبب الثاني: إبراز العنصر الإيجابي في هذه الحياة الروحية المنشودة، فهي روحية غجتماعية، كما سماها أستاذنا البهي الخولي رحمه الله، وهي ربانية إيجابية تعمل للحياة ولا تعتزلها، ولا تعبدها، وتجعل منها مزرعة للحياة الأخرى: حياة الخلود والبقاء.

كما وضح الشيخ الندوي الجانب التعبدي الشعائري في حياة المسلم في كتابه المعروف (الأركان الأربعة) وهو يمثل نظرة جديدة في عبادات الإسلام الكبرى: الصلاة والزكاة والصيام والحج، وآثارها في النفس والحياة[٢].

---

[١] ماذا خسر، ص:٤٠٣.

[٢] الشيخ أبو الحسن الندوي: بحوث ودراسات، ص: ٣٢.

١٧.البناء لا الهدم، والجمع لا التفريق:

والركيزة السادسة: أن الشيخ الندوي جعل همه في البناء لا الهدم، والجمع لا التفريق، وأنا أشبهه هنا بالإمام حسن البنا رحمه الله، الذي كان حريصا على هذا الاتجاه الذي شعاره: نبنى ولا نهدم، ونجمع ولا نفرق، ونقرب ولا نباعد، ولهذا تبنى قاعدة المنار الذهبية: (نتعاون فيما اتفقنا عليه، ويعذر بعضنا بعضا فيما اختلفنا فيه) وهذا هو توجه شيخنا الندوي فهو يبعد ما استطاع عن الأساليب الحادة، والعبارات الجارحة، والموضوعات المفرقة، ولا يقيم معارك حول المسائل الجزئية، والقضايا الخلافية.

ولا يعني هذا: أنه يداهن في دينه، أو يسكت عن باطل يراه أو خطأ جسيم يشاهده، بل هو ينطق بما يعتقده من حق، وينقد ما يراه من باطل أو خطأ، لكن بالتي هي أحسن، كما رأيناه في نقده للشيعة في موقفهم من الصحابة (صورتان متضادتان) وفي نقده للعلامة أبي الأعلى المودودي والشهيد سيد قطب، فيما سماه (التفسير السياسي للإسلام) وإن كنت وددت لو اتخذ له عنوانا غير هذا العنوان، الذي قد يستغله العلمانيون في وقوفهم ضد (شمول الإسلام) وقد صارحت الشيخ بذلك، ووافقني عليه حفظه الله[١].

١٨.إحياء روح الجهاد في سبيل الله:

والركيزة السابعة: هي إحياء روح الجهاد روح الجهاد في سبيل الله، وتعبئة قوى الأمة النفسية للدفاع عن ذاتيتها ووجودها، وإيقاد شعلة الحماسة للدين في صدور الأمة، التي حاولت القوى المعادية للإسلام إخمادها، ومقاومة روح البطالة والقعود، والوهن النفسي، الذي هو حب الدنيا وكراهية الموت، وهذا واضح في كتابه (ماذا خسر العالم) وفي كتابه (إذا هبت ريح الإيمان) وفي حديثه الدافق المعبر عن الإمام أحمد بن عرفان الشهيد وجماعته ودعوته، وعن صلاح الدين الأيوبي وأمثاله من أبطال الإسلام.

ومنذ رسائله الأولى وهو ينفخ في هذه الروح، ويهيب بالأمة أن تنتفض للذود عن حماها، وتقوم بواجب الجهاد بكل مراتبه ومستوياته حتى تكون كلمة الله هي العليا[٢].

---

[١] الشيخ أبو الحسن الندوي: بحوث ودراسات، ص: ٣٦.

[٢] الشيخ أبو الحسن الندوي: بحوث ودراسات، ص: ٣٩.

١٩.استحياء التاريخ الإسلامي وبطولاته:

والركيزة الثامنة: استيحاء التاريخ – ولا سيما تاريخنا الإسلامي – لاستنهاض الأمة من كبوتها، فالتاريخ هو ذاكرة الأمة، ومخزن عبرها، ومستودع بطولاتها، والشيخ يملك حسا تاريخيا فريدا، ووعيا نادرا بأحداثه الكبار، والدروس المستفادة منها، كما تجلى ذلك في رسالته المبكرة (المد والجزر في تاريخ الإسلام) وفي كتابه: (ماذا خسر العالم) وفي غيره، والتاريخ عنده ليس هو تاريخ الملوك والأمراء وحدهم، بل تاريخ الشعوب والعلماء والمصلحين والربانيين. ليس هو التاريخ السياسي فقط، بل السياسي والاجتماعي والثقافي والإيماني والجهادي. ولهذا يستنطق التاريخ بمعناه الواسع، ولا يكتفي بمصادر التاريخ الرسمية، بل يضم إليها كتب الدين، والأدب، والطبقات المختلفة، وغيرها، ويستلهم مواقف الرجال الأفذاذ، وخصوصا المجددين والتجديد خلال تاريخ الأمة: حلقات متصلة، ينتهي دور ليبدأ دور، ويغيب كوكب ليطلع كوكب. والنقص ليس في التاريخ، إنما هو في منهج كتابته وتأليفه[١].

٢٠.نقد الفكرة الغربية والحضارة المادية:

والركيزة التاسعة: هي نقد الجاهلية الحديثة، المتمثلة في الفكرة الغربية، والحضارة المادية المعاصرة، ورؤيته هنا واضحة كل الوضوح لحقيقة الحضارة الغربية وخصائصها، واستمدادها من الحضارتين: الرومانية واليونانية، وما فيهما من غلبة الوثنية، والنزعة المادية الحسية، والعصبية القومية، وهو واع تماما للصراع القائم بين الفكرة الغربية والفكرة الإسلامية، وخصوصا في ميادين التعليم والتربية والثقافة والقيم والتقاليد. وقد أنكر الشيخ موقف الفريق المستسلم للغرب، المقلد له تقليدا أعمى في الخير والشر، ومثله: موقف الفريق الرافض للغرب كله، المعتزل لحضارته بمادياتها ومعنوياتها. ونوه الشيخ بموقف الفريق الثالث، الذي لا يعتبر الغرب خيرا محضا، ولا شرا محضا. فيأخذ من الغرب وسائله لا غاياته، وآلياته لا منهج حياته، فهو ينتخب من حضارته ما يلائم عقائده وقيمه، ويرفض ما لا يلا ئمه. واهتم الشيخ هنا بشعر د. محمد

---

[١] الشيخ أبو الحسن الندوي: بحوث ودراسات، ص: ٤٠.

إقبال باعتباره أبرز ثائر على الحضارة المادية، مع عمق دراسته لها ، وتغلغله في أعماقها.

وقد تجلى هذا في كثير من كتبه ورسائله، ولا سيما: حديث مع الغرب. ماذا خسر العالم. الصراع بين الفكرة الإسلامية والفكرة الغربية. أحاديث صريحة في أمريكا. محاضرة (الإسلام والغرب) في أكسفورد[1].

٢١.نقد الفكر القومية والعصبيات الجاهلية:

والركيزة العاشرة: نقد ما شاع في العالم العربي والعالم الإسلامي كله، من التنادي بفكرة (القومية) القائمة على إحياء العصبيات الجاهلية، بعد ما أكرم الله به هذه الأمة من الأخوة الإسلامية، والإيمان بالعالمية، والبراءة من كل من دعا إلى عصبية، أو قاتل على عصبية أو مات على عصبية. وأشد ما آلمه: أن تتغلغل هذه الفكرة بين (العرب) الذين هم عصبة الإسلام، وحملة رسالته، وحفظة كتابه وسنته، وهو واحد منهم نسبا وفكرا وروحا.

لذا وقف في وجه (القومية العربية) العلمانية المعادية للإسلام، المفرقة بين المسلمين، والتي اعتبرها بعضهم (نبوة جديدة) أو (ديانة جديدة) تجمع العرب على معتقدات ومفاهيم وقيم غير ما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم. الذي هدى الله به أمة العرب، وجمعهم به من فرقة، وأخرجهم به من الظلمات إلى النور. وهو رغم رفضه للقومية، لا ينكر فضل العرب ودورهم وريادتهم، بل هو يستنهض العرب في محاضراته ورسائله وكتبه للقيام بمهمتهم، والمناداة بعقائدهم ومبادئهم في وجه العالم، كما نادى ربعي بن عامر، في مواجهة قادة الفرس، وهو يقول في: ماذا خسر العالم: (محمد رسول الله روح العالم العربي) ويوجه رسالة عنوانها: اسمعوها مني صريحة أيها العرب. ورسائل أخرى: العرب والإسلام. الفتح للعرب المسلمين. اسمعي يامصر. اسمعي يا سورية. اسمعي يا زهرة الصحراء (يعني: الكويت). كيف ينظر المسلمون إلى الحجاز وجزيرة

---

[1] الشيخ أبو الحسن الندوي: بحوث ودراسات، ص: ٤١.

العرب؟ كيف دخل العرب التاريخ. العرب يكشفون أنفسهم: تضحية شباب العرب. إلى آخره[١].

[١] الشيخ أبو الحسن الندوي: بحوث ودراسات، ص: ٤٢.

الباب السادس

نتيجة البحث

الشيخ أبو الحسن علي الندوي أحد أبرز علماء وقادة الهند الإسلاميين، وكانت شخصيته جامعة لكثير من المواهب التي قلما تتواجد في رجل واحد. كان الندوي أشهر كتاب القرن العشرين، فقد نبع من قلمه أكثر من ١٧٠ كتابا في الدراسات الإسلامية والعربية. وبالإضافة إلى عبقريته وسعة علمه كان داعية إلى الإسلام والإنسانية والأمن فأسس لذلك حركة رسالة الإنسانية. كتاباته تعبر عن سعة علمه وعزمه على تكوين مجتمع عادل مثالي يتمتع بالحرية والاحترام إنه أثر استخدام لغة سهلة بسيطة في كل من كتاباته وخطاباته.

كان نير الفكر، ولا يمكن وصفه بالرجعية، يرى الإسلام نعمة للإنسان، وعنصرا إيجابيا في التاريخ البشري، ويعتقد أن الإسلام قوة حضارية تحتفظ بأصالته في كل عصر. له سعة اطلاع على التاريخ الإسلامي. وهو متحمس للعودة بالمسلمين إلى الماضي الذي يتحمل به التاريخ. ويعتقد أنه ليست هناك فترات بين تاريخنا الفكري الدعوي، وهذا هو شعوره بمدى خسران العالم بانحطاط المسلمين في شتى العصور والأمكنة.

لم يكن الندوي ضيق الفكر، أو مائلا إلى الرجعة، فنهض لذلك لإصلاح المجتمع الإنساني، وللبعث الإسلامي، يحب وطنه، ويؤمن بمبادئ الاحترام الثنائي لإنشاء بيئة الأمن والسلام، القائمة على أساس القيم الإنسانية والمثل العليا، والسلام، والتسامح، في بلاده وفي العالم كله.

الندوي له إسهامات في اللغة العربية وآدابها، وكان رجلها الوحيد في الهند، وذلك لأن اللغة العربية ليست حية نامية فحسب وإنما هي تسع خدمة الإنسانية كلغات حية أخرى، وتفي بكافة حاجات ناطقيها لو فرة ثروتها اللغوية ومميزاتها الأخرى.

كان الندوي متألما لواقع العالم الإسلامي، فما عاش لنفسه لخطة من حياته وإنما كرس حياته لإعادة الثقة بالإسلام، كان الدين هو الهدف الأول والأخير له، في كل شأن،

وفي كل مكان، فتجاهر بالدين، ودعا إليه من غير خوف، وبدون مبالاة بالعواقب، لأن حياة المسلم لا تستغني عن الدين للمحة واحدة، ولن ترجو خيرا فيها من غير الدين، فالدين هو المحور الأساسي الذي تدور حوله حياة كل مسلم. عاش الندوي حياة ملؤها جد وجهاد، وتضحية وإخلاص، وجمع متزن بين العقيدة والسلوك، وبين العلم والعمل، وبين الأصلالة والمعاصرة، وبين السيف والقلم، وبين الرؤية والتطبيق، إنه درس تاريخ الأمم بتعمق وحياد وواقعية، واستنبط منه نتائج إيجابية، تفرز ما قد واجهته حضاراتها وفلسفاتها من اندثار وانهيار، جعل الندوي كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم محورا أساسيا للفكر الإيماني الذي عاشه وانطلق منه إلى جميع التأملات والدراسات في الحياة والكون والإنسان، واتخذه قاعدة للعمل الإسلامي الشامل الذي قام به، والدعوة الإسلامية التي تبناها، ونذر حياته لنشرها بين العالمين، وجند كل مؤهلاته وطاقاته لإعلاء كلمة الإسلام وفلسفته العلمية والحضارية بإزاء الحضارات والمعتقدات الزائفة، وقد كان يدرس ظروف العالم الاجتماعية والسياسية، وأوضاع الأمم والشعوب، ويستعرض أحوال المسلمين في كل مكان، وما يعيشونه من ضعف أو وهن، ويهتم بكل ذلك غاية الاهتمام، ويستطلع الحديث الأحدث من المعلومات على الصعيد العالمي.

حياة مليئة بالعلم والإنتاج فألف أكثر من ١٧٧ كتابا، ولعل أكثرها وأوسعها انتشارا مؤلفه "ماذا خسر العالم" الذي ترجم إلى عدة لغات وصدر منه أكثر من أربعين طبعة منذ تأليفه، وقد كانت مادته ذات أهمية بالغة في الحتفاء بها إلى جانب الأسلوب المانع الذي كتب به المؤلف هذا الكتاب، مما أهله لهذا الرواج الواسع والاهتمام الكبير على مستويات متعودة، وخصيصة هذا الكتاب الفهم العميق لكليات الروح الإسلامية في محيطها الشامل، وهو يعد نموذجا للبحث الديني والاجتماعي.

ومن جهوده العلمية سيرة سيد أحمد شهيد الأدية (جزآن) وهو أول كتاب له بالأردية، وأعد مقررات الأدب للمدارس، منها مختارات(٢)، وقصص النبيين(٥)، والقراءة الراشدة(٤)، وألف كتاب ماذا خسر العالم عام ١٩٤٤-١٩٤٧م ومن مؤلفاته الأخرى رجال الفكر والدعوة، والسيرة النبوية، والأركان الأربعة، والصراع بين الفكرة

الإسلامية والفكرة الغربية، وإلى الإسلام من جديد، وإذا هبت ريح الإيمان، ونظرات في الأدب، وروائع إقبال.

من أهم محاضراته "النبوية والأنبياء في ضوء القرآن" في الجامعة الإسلامية، بالمدينة المنورة عام ١٩٦٣م، و "نحو التربية الإسلامية" في الرياض عام ١٩٦٨، ومحاضرات في القاهرة ودمشق عام ١٩٥١م بعناوين شتى.

ومن رحلاته رحلته إلى لاهور عام ١٩٢٩م حيث التقى بالشاعر إقبال، وإلى بومباي عام ١٩٣٥م حيث التقى بالدكتور أمبيدكر، وإلى الحجاز للحج عام ١٩٣٧م، وإلى مصر عام ١٩٥١م بعد تأليفه "ماذا خسر"، فالتقى هنالك بمشايخ الأزهر، وألقى محاضرات شتى، وسافر إلى السودان والشام والقدس والأردن في الرحلة نفسها، وزار الشام أستاذا زائرا بجامعة دمشق عام ١٩٥٦م وسافر في الرحلة نفسها إلى لبنان وطرابلس وتزكيا، ثم سافر إليها عام ١٩٦٤م، فعام ١٩٨٦م، فعام ١٩٨٩م، فعام ١٩٩٣م، وسافر إلى الكويت عام ١٩٦٢م فعام ١٩٦٨م، فعام ١٩٨٣م، فعام ١٩٨٧م، وإلى الإمارات العربية المتحدة عام ١٩٧٤م بدعوة من حاكمها، فعام ١٩٧٦م، فعام ١٩٨٣م، فعام ١٩٨٨م، فعام ١٩٩٣م، فعام ١٩٩٩م، وسافر إلى أفغانستان وإيران والعراق عام ١٩٧٣م، وإلى الأردن عام ١٩٧٣م و١٩٧٤م، وسافر إلى أمريكا عام ١٩٧٧م و١٩٩٣م، وإلى كندا عام ١٩٧٧م. وسافر إلى أوربا للمرة الأولى عام ١٩٦٣م، زار فيها أسبانيا وجنيف، ولوزان، وبرلن، وباريس، ولندن، وإيدمبرا، فإليها عام ١٩٦٤م، فعام ١٩٦٩م، فعام ١٩٨٦م، فعام ١٩٨٧م، فعام ١٩٨٩م، فعام ١٩٩٢م، وإلى باكستان عام ١٩٥٩م، فعام ١٩٦٤م، ثم عام ١٩٧٨م، فعام ١٩٨٦م، ورحلاته إلى الحجاز عام ١٩٤٧م – كما تقدم –، وعام ١٩٥١م فعام ١٩٦٢م فعام ١٩٦٧م، فعام ١٩٦٩، ومرات كثيرة، ورحلته الأخيرة إلى الحجاز عام ١٩٩٨م، وسافر إلى ماليزيا عام ١٩٨٢م ثم عام ١٩٨٧م، وسافر إلى تاشقند، وسمرقند، وبخارى عام ١٩٩٣م، وسافر إلى سريلانكا عام ١٩٨٢م، وعمان عام ١٩٥١م، ثم عام ١٩٧٣م، فعام ١٩٨٤م، فعام ١٩٩٨م. أكاديمية جوالة، هذه الكلمة تصدق على الندوي بكل ما تؤدي من معان، ولا أقول ذلك عن نفسي، وإنما هو

تمثيل لأولئك العلماء والأدباء والمفكرين الذين أشادوا بجهوده العلمية والعملية خلال حياته وبعد وفاته، كما يظهر ذلك من الرسائل التي وجهوها وإليه، والكتب التي ألفوها، والمجلات والصحف التي كانوا يصدرونها، والتعازي التي وجهوها إلى ندوة العلماء إثر وفاته تبدي بحق مدى منزلته التي كانت في أنفسهم تجاه نفسه، ومدى الإجلال الذي ينظرون به إليه، وذلك ما تعني الآية: "سيجعل لهم الرحمن ودا". وكان العلماء يلقبونه ببركة العصر، ونسمي هنا عددا منهم في السطور التالية:

- السيد قطب، اعترف بقدرته على العربية، وفهمه لكليات الروح الإسلامي، وعد كتابه ماذا خسر خير ما قرأ.
- يوسف موسى اعترف بإخلاصه في الدعوة، واعتبر كتابه ماذا خسر شخصا للأدواء.
- شكري فيصل عده في مصاف كبار المفكرين المسلمين لنظراته الشاملة إلى تطور الحياة الإنسانية، وأشاد بأسلوبه الذي اختاره في كتابه ماذا خسر.
- مصطفى السباعي اعترف بأن مؤلفاته تتميز بالدقة العلمية، وبالتحليل الدقيق لمشاكل العالم الإسلامي.
- أنور الجندي أشاد بروعة أسلوبه وعمق فهمه للإسلام.
- محمد المجذوب يقول إن لكتاباته سحرا غريبا.
- مصطفى الطحان يجعله من كبار الكتاب الإسلاميين.
- علي الطنطاوي كتب تقديمات لعدة مؤلفاته، وأشاد فيها بحسن اختياره وذوقه، وهناك فهرس طويل للعلماء والقادة الإسلاميين الذين اعترفوا بفضله وعبقريته، ولو ذهبنا ننقل انطباعاتهم وملاحظاتهم تجاه حياته وأسلوبه لاستغرق ذلك مآت صفحات أو أكثر، إلا أننا نحن نكتفي ههنا بإيراد أسمائهم في السطور الآتية:

الأستاذ أحمد الشرباصي، الداعية محمد الغزالي، الدكتور سعيد رمضان، الأستاذ صالح العشماوي، الشيخ بهي الخولي، الدكتور يوسف سلامة، الدكتور محمد حسين هيكل، الأستاذ عباس محمود العقاد، الأستاذ أحمد حسن الزيات، الكاتب الإسلامي محي الدين

الخطيب، الدكتور أحمد أمين، الأستاذ محمد المبارك، الأستاذ محمد أسد صاحب الطريق إلى مكة، الأستاذ المحقق محمود محمد شاكر، الأستاذ خليل مردم بك، الأستاذ عبد الرحمن رأفت الباشا، الشيخ يوسف القرضاوي، الشيخ عبد العزيز بن باز، الشيخ بهجة الأثري، الشيخ عبد الفتاح أبو غدة، الشيخ خليل اليماني، الشيخ حسين أحمد المدني، الدكتور تقي الدين الهلالي، الملك فيصل آل سعود، الملك خالد بن عبد العزيز، الملك فهد بن عبد العزيز، الشيخ عبد القادر الرائ بوري.

البيئة التي فتح الشيخ الندوي فيها عينه كانت مليئة بحق بألوان من الكوارث والأخطار، والدنيا محاطة بدهياء الحرب العظمى، والاستعمار كان يبتلع العالم الإسلامي كما يبتلع الأفعى فريسته، والبقية الباقية منه كان في خطر، فهذه الخلافة العثمانية ينساب فيها الضعف يوما فيوما، وتلك الاشتراكية الروسية، تبث سمومها في جسد العالم البشري، أما الهند فكانت خاضعة للإنجليز، والحركات تدار للتخلص من براثنهم، ففي مثل هذه البيئة تكاد تبكي كل عين مؤمنة.

وهذا الكتاب الذي بين أيدينا، والذي دوي اسمه في العالم ونقل إلى لغات دولية ومحلية شتى، تعبير في الواقع عن هذه البيئة، ورد على الأسئلة الثائرة في أذهان الناس.

عندما ألف الشيخ الندوي هذا الكتاب لم يكن عمره نيفا على اثنين وثلاثين، سنوات شبابه، سنوات الخضوع للعواطف وأهواء النفس دون العقل، سنوات لا يكون الفكر خلالها ناضجا إلى حد أن تتوخى منه منجزات ذات متانة، وخاصة إذا كانت تتعلق بما دخل الدول والأمم من مدات وجزرات، وتقدمات وتخلفات، وقيادة للعام فالموضوع أصعب ما يكون، وأي واحد قرأ هذا الكتاب أبلى صاحبه، بلاء حسنا، وأضف إلى ذلك قلة المواد والكتب حول موضوعه في الهند.

الكتاب المعنون بـــ"ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين" والذي ترجم إلى الإنكليزية باسم "Islam and the world" يتوزع أساسيا إلى خمسة أبواب:

الباب الأول : العصر الجاهلي، وفيه فصلان.

الباب الثاني : من الجاهلية إلى الإسلام، وفيه أربعة فصول.

الباب الثالث : العصر الإسلامي، وفيه ثلاثة فصول.

الباب الرابع : العصر الأوربي، وفيه أربعة فصول.

الباب الخامس : قيادة الإسلام للعالم، وفيه فصلان.

الباب الأول يبحث في أوضاع العصر الجاهلي، وما هي الديانات العظيمة في ذلك العصر، وما هي المكانة التي يحتلها أتباع تلك الديانات، من المسيحية، واليهودية، والبوذية، ولكن الواقع أن سائر تلك الديانات فقدت روحها وتعاليمها التي جاء بها الأنبياء والمصلحون منها، واستعرض مؤلف الكتاب هذه الظاهرة بالتفصيل.

والباب الثاني يبحث في منهج الأنبياء في الإصلاح والتجديد، وبعثة محمد صلى الله عليه وسلم، ما هي أوضاع العالم عند بعثته، وما هي النواحي الفاسدة في حياتهم، ولماذا بعث، وهاجر إلى المدينة المنورة، وكيف وقع انقلاب في العالم، وما هي الأسس والمبادئ التي يقوم عليها صرح الإيمان الصحيح، وما هي مسئوليات الفرد والمجتمع في الإسلام.

والباب الثالث يبحث في القيادة الإسلامية والخلافة الراشدة وتأثيرها في المجتمع، ولماذا بدأ الانحطاط في الأيام الأخيرة من ذلك العهد، وما هي أسباب نهضة العالم، ويفصل الكلام كذلك في العهدين العباسي والعثماني.

الباب الرابع يبحث في العصر الأوربي وطبيعة الحضارة الأوربية وخصائصها وتاريخها، وكيف اتجهت إلى المادية وثارت على الكنيسة، وكيف أفلس العالم من المبادئ الخلقية والروحية.

والباب الخامس يفصل الكلام في حل الأزمة التي يواجهها العالم، ألا وهي أزمة عدم القيادة الإسلامية، القيادة الإسلامية التي شهدها العالم في القرون الأولى، ويؤكد بأن المسلمين هم الأمة الوحيدة التي تليق بقيادة العالم، وهم موئل الإنسانية، فعندهم تعاليم الإسلام السمحة، وقيمه ومثله العليا.

وهذا الموضوع وإن لم يعد بكرا لما مضى من خمسة قرون بعد انحطاط المسلمين، وقد ألف فيه قبله أمير البيان شكيب أرسلان كتابا أسماه "لماذا تأخر المسلمون

ولماذا تقدم غيرهم"، ولكن كتاب الشيخ الندوي أحسن وأكمل ما ألف في هذا الموضوع كما اعترف بذلك السيد قطب في المقدمة التي كتبها لهذا الكتاب قائلا: هذا الكتاب الذين بين يدي: "ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين" لمؤلفه "السيد أبي الحسن علي الحسني الندوي" من خير ما قرأت في هذا الاتجاه، في القديم والحديث سواء".

فيمكن القول بدون تردد بأن المؤلف لو لم ينبع من قلمه إلا هذا الكتاب لكفاه تجديدا لذكراه وذكرا له بين الناس. وإن الموضوع الذي ألف فيه الكتاب كان يستلزم ألا يكون تعليقة تافهة أو تحليلا وجيزا، وإنما ينبغي أن تكون سائر جوانبه وجزئياته على ذكر منه، وأن يبحث فيها بالإسهاب، حتى يمثل قارئ الكتاب في نفسه صورة واضحة لا غموض فيها ولا إبهام، ويقتنع به غاية الاقتناع، ولذا فإن الجهد الذي بذله صاحب الكتاب لتأليفه لا يستطيع أن يقدره إلا من كان له عهد به وأولى اهتماما بالغا بالموضوع، واكتنه فيه وسبرغوره، ونظرة واحدة على محتويات الكتاب تجعلك تتنبه لواقع كاد يخفى عليك أن الكتاب في الأصل سجل العالم كله، وديوان كافة الدول التي وجدت ولا تزال توجد فيه، وكافة الأمم التي عاشت ولا تزال تعيش فيه وليس لأمة واحدة أو لدولة واحدة فحسب.

يصور الكتاب المدات والجزرات التي تطرأ على الأمم، والميزات والخصائص، والفضائل والرذائل التي تتصف بها، ومكانتها بين سائر الأمم، والتأثيرات التي تقع على الكائن البشري لسيئاتها أو حسناتها، والانقلابات التي تحدث لموقفها وقربها أو بعدها عن النظام الطبيعي الذي فطره الله سبحانه. الكتاب يحلل النفسية التي أودعت الأمم الغالبة والمنن أو المظالم التي صبتها على البشرية جمعاء، تحليل خبير بعلم التشريح الذي يركز انتباهه على أعضاء جسد حيواني ويقوم بتحليلها وفحصها من كل جانب، وهذا التحليل لا تشوبه شوائب العصبية والانحياز والمحاماة المحرمة عند الناس، وحاول المؤلف أن يعرض الظاهرة الواقعية صنيع مؤرخ متنبه لواجبه غير منحاز إلى هذا وذاك، يرى المؤلف أن الإنسان عصارة هذا الكون، بقاؤه منوط بناصية بقاء الكون. ولذا فإن فساد الإنسان وصلاحه وخير وشره يلقي كل ذلك أثرا بالغا على الكون والغرض الذي خلق له، فيريد أن يتولى زمام هذا العالم أولئك الكرام الذين يجمعون بين الإخلاص في العمل،

والصدق في النية، وبين الاطلاع على مقصدية الكون، والحفاظ على نواميس الطبيعة، ولو لم يكن ذلك لظهر الفساد في البر والبحر بما كسبت أيدي الناس، وجادت الدنيا عن مسارها الطبيعي، وعاد هدف خلق الكون ناقصا، ويرى الشيخ الندوي أن الأمة الوحيدة التي يليق بها هذا التولي، وهذه القيادة، هي أمة المسلمين لا غير، فإن المسلمين ليسوا أمة بأبسط معناها وإنما هم جزء أساسي رئيسي من التخطيط الإلهي، ومثلهم كمثل شمس تطلع على العالم وتنشر نورها في كافة أجزائه، ومثل الأمم الأخرى كمثل الكواكب التي تستعير ضوءها من الشمس، وهذه المكانة التي أكرم بها المسلمون ليست وسام شرف لهم وإنما هي مسئولية تقع على كواهلهم، وواجب ليس لهم بد من أدائه، وتلك الأمانة التي أبت الجبال والأرض والسماء أن يحملنها فحملها الإنسان كما جاء في سورة الأحزاب[1]. ولكن أكثر الناس لا يعلمون.

كانت الإنسانية قبل بزوغ فجر الإسلام العظيم تعيش مرحلة من أحط مراحل التاريخ البشري في شؤونها الدينية والاقتصادية والسياسية والاجتماعية، وتعاني من فوضى عامة في كافة شؤون حياتها، وهيمن المنهج الجاهلي على العقائد والأفكار والتصورات والنفوس، وأصبح الجهل والهوى والانحلال والفجور، والتجبر والتعسف من أبرز ملامح المنهج الجاهلي المهيمن على دنيا الناس.

وضاع تأثير الديانات السماوية على الحياة أو كاد بسبب ما أصابها من التبديل والتحريف والتغيير الذي جعلها تفقد أهميتها باعتبارها رسالة الله إلى خلقه، وانشغل أهلها بالصراعات العقدية النظرية التي كان سببها دخول الأفكار البشرية، والتصورات الفاسدة على هذه الأديان، حتى أدى إلى الحروب الطاحنة بينهم، ومن بقي منهم لم يحرف ولم يبدل قليل نادر، وآثر الابتعاد عن دنيا الناس ودخل في حياة الخلوة والعزلة طمعًا في النجاة بنفسه يأسًا من الإصلاح، ووصل الفساد إلى جميع الأصناف والأجناس البشرية، ودخل في جميع المجالات بلا استثناء.

---

[1] الأحزاب:٧٢.

ففي الجانب الديني تجد الناس إما أن ارتدوا عن الدين أو خرجوا منه أو لم يدخلوا فيه أصلا، أو وقعوا في تحريف الديانات السماوية وتبديلها، وأما في الجانب التشريعي، فإن الناس نبذوا شريعة الله وراءهم ظهريًا، واخترعوا من عند أنفسهم قوانين، وشرائع لم يأذن بها الله، تصطدم مع العقل وتختلف مع الفطرة.

وتزعم هذا الفساد زعماء الشعوب والأمم من القادة والرهبان والقساوسة والدهاقين والملوك، وأصبح العالم في ظلام دامس وليل بهيم، وانحراف عظيم عن منهج الله سبحانه وتعالى.

فاليهودية: أصبحت مجموعة من الطقوس والتقاليد لا روح فيها ولا حياة، وتأثرت بعقائد الأمم التى جاورتها واحتكت بها، والتي وقعت تحت سيطرتها فأخذت كثيرا من عاداتها وتقاليدها الوثنية الجاهلية، وقد اعترف بذلك مؤرخو اليهود فقد جاء في دائرة المعارف اليهودية: «إن سخط الأنبياء وغضبهم على عبادة الأوثان يدل على أن عبادة الأوثان والآلهة، كانت قد تسربت إلى نفوس الإسرائيليين، ولم تستأصل شأفتها إلى أيام رجوعهم من الجلاء والنفي في بابل، وقد اعتقدوا معتقدات خرافية وشركية.

إن التلمود ايضا يشهد بان الوثنيه كانت فيها جاذبيه خاصه لليهود».

إن المجتمع اليهودي قبل البعثة المحمدية قد وصل إلى الانحطاط العقلي وفساد الذوق الديني، فإذا طالعت تلمود بابل الذي يبالغ اليهود في تقديسه، والذي كان متداولاً بين اليهود في القرن السادس المسيحي، تجد فيه نماذج غريبة من خفة العقل وسخف القول، والاجتراء على الله، والعبث بالحقائق والتلاعب بالدين والعقل.

أما المسيحية: فقد امتحنت بتحريف الغالين، وتأويل الجاهلين واختفى نور التوحيد وإخلاص العبادة لله وراء السحب الكثيفة، واندلعت الحروب بين النصارى في الشام والعراق، وبين نصارى مصر حول حقيقة المسيح وطبيعته، وتحولت البيوت والمدارس والكنائس إلى معسكرات متنافسة وظهرت الوثنية في المجتمع المسيحي في مظاهر مختلفة وألوان شتى، فقد جاء في تاريخ المسيحية في ضوء العلم المعاصر:

«لقد انتهت الوثنية، ولكنها لم تلق إبادة كاملة، بل إنها تغلغلت في النفوس واستمر كل شيء فيها باسم المسيحية وفي ستارها، فالذين تجردوا عن آلهتهم وأبطالهم وتخلوا عنهم أخذوا شهيدًا من شهدائهم ولقبوه بأوصاف الآلهة، ثم صنعوا له تمثالا، وهكذا انتقل هذا الشرك وعبادة الأصنام إلى هؤلاء الشهداء المحليين، ولم ينته هذا القرن حتى عمت فيه عبادة الشهداء والأولياء، وتكونت عقيدة جديدة، وهي أن الأولياء يحملون صفات الألوهية، وصار هؤلاء الأولياء والقديسون خلقا وسيطا بين الله والإنسان يحمل صفة الألوهية على أساس عقائد الأريسيين، وأصبحوا رمزا لقداسة القرون الوسطى وورعها وطهرها، وغيرت أسماء الأعياد الوثنية بأسماء جديدة، حتى تحول في عام ٤٠٠ ميلادي عيد الشمس القديم إلى عيد ميلاد المسيح»، وجاء في دائرة المعارف الكاثوليكية الجديدة: «تغلغل الاعتقاد بأن الإله الواحد مركب من ثلاثة أقانيم في أحشاء حياة العالم المسيحي وفكره، منذ ربع القرن الرابع الأخير، ودامت كعقيدة رسمية مسلَّمة، عليها الاعتماد في جميع أنحاء العالم المسيحي، ولم يرفع الستار عن تطور عقيدة التثليث وسرها إلا في المنتصف الثاني للقرن التاسع عشر الميلادي».

لقد اندلعت الحروب بين النصارى وكفَّر بعضهم بعضًا، وقتل بعضهم بعضًا، وانشغل النصارى ببعضهم عن محاربة الفساد وإصلاح الحال ودعوة الأمم إلى ما فيه صلاح البشرية.

وأما المجوس: فقد عرفوا من قديم الزمان بعبادة العناصر الطبيعية، أعظمها النار، وانتشرت بيوت النار في طول البلاد وعرضها، وعكفوا على عبادتها وبنوا لها معابد وهياكل، وكانت لها آداب وشرائع دقيقة داخل المعابد، أما خارجها فكان أتباعها أحرارًا يسيرون على هواهم لا فرق بينهم وبين من لا دين له.

ويصف المؤرخ الدنماركي طبقة رؤساء الدين ووظائفهم عند المجوس في كتابه «إيران في عهد الساسانيين» فيقول: «كان واجبًا على هؤلاء الموظفين أن يعبدوا الشمس أربع مرات في اليوم، ويضاف إلى ذلك عبادة القمر والنار والماء، وكانوا مكلفين بأدعية خاصة، عند النوم والانتباه والاغتسال ولبس الزنار والأكل والعطس وحلق الشعر وتقليم

الأظافر، وقضاء الحاجة وإيقاد السرج، وكانوا مأمورين بألا يدعوا النار تنطفئ، وألا تمس النار والماء بعضها بعضا، وألا يدعوا المعدن يصدأ لأن المعادن عندهم مقدسة».

وكان أهل إيران يستقبلون في صلاتهم النار، وقد حلف (يزدجرد) آخر ملوك الساسانيين – بالشمس مرة وقال: «أحلف بالشمس التي هي الإله الأكبر». وقد دان المجوس بالثنوية في كل عصر وأصبح ذلك شعارًا لهم، فآمنوا بإلهين اثنين، أحدهما النور أو إله الخير والثاني الظلام أو إله الشر.

أما البوذية: في الهند وآسيا الوسطى، فقد تحولت وثنية تحمل معها الأصنام حيث سارت، وتبني الهياكل، وتنصب تماثيل بوذا حيث حلت ونزلت.

أما البرهمية: دين الهند الأصلي، فقد امتازت بكثرة المعبودات والآلهة، وقد بلغت أوجها في القرن السادس الميلادي، ولا شك أن الديانتين الهندوكية والبوذية وثنيتان سواء بسواء، لقد كانت الدنيا المعمورة من البحر الأطلسي إلى المحيط الهادي غارقة في الوثنية، وكأنما كانت المسيحية واليهودية والبوذية والبرهمية تتسابق في تعظيم الأوثان وتقديسها، وكانت كخيل رهان تجري في حلبة واحدة.

وقد أشار النبي صلى الله عليه وسلم إلى عموم هذا الفساد لجميع الأجناس وجميع المجالات بلا استثناء فقد قال صلى الله عليه وسلم ذات يوم في خطبته: «ألا إن ربي أمرني أن أعلمكم ما جهلتم مما علمني يومي هذا، كل ما نحلته عبدًا حلال وإني خلقت عبادي حنفاء كلهم، وإنهم أتتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم وحرمت عليهم ما أحللت لهم، وأمَرَتْهم أن يشركوا بي ما لم أنزل به سلطانا، وإن الله نظر إلى أهل الأرض فمقتهم: عربهم وعجمهم، إلا بقايا من أهل الكتاب».

والحديث يشير إلى انحراف البشرية في جوانب متعددة كالشرك بالله، ونبذ شريعته وفساد المصلحين من حملة الأديان السماوية وممالأتهم للقوم على ضلالهم.

ابتليت الأمة العربية بتخلف ديني شديد، ووثنية سخيفة لا مثيل لها، وانحرافات خلقية، واجتماعية، وفوضى سياسية، وتشريعية، ومن ثم قل شأنهم وصاروا يعيشون على هامش التاريخ، ولا يتعدون في أحسن الأحوال أن يكونوا تابعين للدولة الفارسية أو

الرومانية، وقد امتلأت قلوبهم بتعظيم تراث الآباء والأجداد واتباع ما كانوا عليه مهما يكن فيه من الزيغ والانحراف والضلال ومن ثم عبدوا الأصنام، فكان لكل قبيلة صنم، فكان لهذيل بن مدركة: سواع، ولكلب: ود، ولمذحج: يغوث، ولخيوان: يعوق، ولحمير: نسر، وكانت خزاعة وقريش تعبد إسافًا ونائلة، وكانت مناة على ساحل البحر، تعظمها العرب كافة والأوس والخزرج خاصة، وكانت اللات في ثقيف، وكانت العزى فوق ذات عرق، وكانت أعظم الأصنام عند قريش.

وإلى جانب هذه الأصنام الرئيسية يوجد عدد لا يحصى كثرة من الأصنام الصغيرة والتي يسهل نقلها في أسفارهم ووضعها في بيوتهم.

روى البخاري في صحيحه عن أبي رجاء العُطاردي قال: «كنا نعبد الحجر، فإذا وجدنا حجرا آخر هو أخيرُ منه ألقيناه وأخذنا الآخر، فإذا لم نجد حجرًا جمعنا جُثوة من تراب، ثم جئنا بالشاة فحلبناه عليه ثم طفنا به».

وقد حالت هذه الوثنية السخيفة بين العرب، وبين ومعرفة الله وتعظيمه وتوقيره والإيمان به، وباليوم الآخر وإن زعموا أنها لا تعدو أن تكون وسائط بينهم وبين الله، وقد هيمنت هذه الآلهة المزعومة على قلوبهم وأعمالهم وتصرفاتهم، وجميع جوانب حياتهم وضعف توقير الله في نفوسهم قال تعالى: (إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَالْمَوْتَى يَبْعَثُهُمُ اللهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ) [الأنعام: ٣٦].

أما البقية الباقية من دين إبراهيم عليه السلام فقد أصابها التحريف، والتغيير والتبديل، فصار الحج موسما للمفاخرة والمنافرة، والمباهاة وانحرفت بقايا المعتقدات الحنيفية عن حقيقتها وألصق بها من الخرافات والأساطير الشيء الكثير.

كان بعض العرب قد تنصر، وبعضهم دخل في اليهودية، أما الأغلبية فكانت تعبد الأوثان والأصنام.

جاء الإسلام في جزيرة كانت مفصولة عن سائر أقطاع العالم المتحضر، وكن معظم أبنائها جاهلين عن معنى الإنسانية والدين، العصبية والقبلية من عاور حياتهم الأساسية، وكافة السيئات على المستوى العقدي والعملي متواجدة فيهم، فهم خاضعون

للتقاليد القبلية وميول أنفسهم، وعندما جاء الإسلام تغيرت حياتهم، وتجاهاتهم، وتولوا زمام العالم، ولكن بعد مرور حقب من الزمن غلبتهم المادية، وساروا على ما سار عليه الزمن، وجعلوا يعدون الدنيا خير متاعهم، وتغلبت عليهم، وابتعدوا عن تعاليم الدين الأصلية ومتطلباته، مع أن الله ناط استخلافهم في الأرض واستيلاءهم عليها باستيفاء شروط الإيمان فلما لم يصدقوا ما أمرهم الله به سلبهم الله ما كان لهم.

هذا، ولم يستطع المسلمون أن يمثلوا الإسلام أصدق تمثيل في المعصر الأخير، ولم يعدوا أنفسهم على نحو كامل، على أن الله سبحانه قال: وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة. ولكنهم لقصورهم عن التنبه لاتجاه العصر الصحيح ظلوا جاهلين عن طبيعة الجاهلية وخطراتها وذلك مصداقا لقول عمر رضي الله عنه: "أخاف على هذا الدين من أولئك الذي نشأوا في الإسلام ولم يعرفوا الجاهلية، فأنتج ذلك عن أن أصيب المسلمون بانحطاط وحرموا قيادة العالم. فلفقدان هاتين القوتين الأساسيتين – القوة الإيمانية والقوة المادية – تخلف المسلمون، ولا يقع حادث انحطاط أي أمة لعوامل مؤقتة، وإنما يستغرق قرونا، فكان انحطاط المسلمين قد بدأ إثر انتهاء الخلافة الراشدة، إلا أن انحطاطهم السياسي والعلمي ظهر جليا في القرن التاسع العاشر، وذلك عندما انهزموا على يد أوربا لتقدمهم في مجال العلوم والتكنالوجيا. وحدث هذا الانحطاط جراء غفلة المسلمين لا لمؤامرات الأعداء.

يحتل القرنان السادس عشر والسابع عشر أهمية كبيرة في خريطة التاريخ، فإن العالم كان قد دخل في عهد جديد، وحققت أوربا تقدمات بارزة في كل مجال، حال أن العالم الإسلامي عاد غافلا عن تقدمها ويقظتها، وكانت كما يكتب الندوي كل لحظة من لحظات ذلك العصر معادلة لأعوام فمن فاتته لحظة الاستعداد هذه فاتته أعوام، فالأسف على المسلمين أنهم أضاعوا هذه اللحظات، إلا أن أوربا استغلتها لمصالحها وقطعت مراحل القرون في عدة أعوام.

فكرة الندوي ونظرته إلى العالمين الإسلامي والغربي هي خير تمثيل لاتجاهه الدعوي الذي يقتضي أن يحاسب الإنسان نفسه قبل أن يحاسب غيره.

وهذه ميزة الندوي التي تميزه عن غيره من العلماء والمفكرين.

ميزة هذا الكتاب أنك تجد فيه مواد شافية مما يتعلق بأوضاع العالم الجاهلي السياسية والاقتصادية والدينية وخاصة ما جرى قبيل البعثة المحمدية، والصورة التي يعرضها الكتاب واضحة ملامحها، ولعرض هذه الصورة الواضحة استشهد بأقوال المؤرخين الذي كتبوا حول الموضوع.

واستدل المؤلف على أن كافة مجتمعات العصر الجاهلي صفرة من المثل العليا والقيادة المؤسسة على العلم والمعرفة، وكانت جميع الأديان السماوية فريسة التحريف، والإمبراطوريتان العظيمتان البيزنطية والفارسية، كانت في صراع فيما بينهما، وقد انتشر في كلتيهما الفوضى والتدهور الخلقي والديني، هذا الكتاب يحقق يؤكد عظمة الإسلام باستعراض ما خسر العالم بانحطاط أهله وما ربح بتقدمهم، إنه يؤكد أن العالم لم يزل ولا يزال بأمس حاجة إلى هذا الددين، وبقاؤه منوط ببقائه، وفناؤه معقود بفنائه. عطاء الإسلام للعالم إسعاده من التدهور الديني والخلقي والمساوئ والخروج به من عبادة العباد إلى عبادة الله وحده ومن الظلم والجور إلى العدل والمساواة.

بدأ المؤلف حديثه بالكارثة العظمى التي حلت بالعالم حين انحدار المسلمون، إذ لو قدر العالم جميعه هول هذه الكارثة لاتخذ اليوم الذي وقعت فيه يوم رثاء وحداد، ولكن الحادث وقع تدريجيا فلم يفطن به إلا بعد أن تفاقم الهول، لأن المسلمين لم يكونوا في دولتهم المزدهرة كغيرهم من الأمم المتسلطة بل كانوا العافية لجسم الإنسان، فهم روح الجسم البشري وحملة رسالة الأنبياء، يقتصر على ماكان في دولتي الفرس والروم والجزيرة العربية كما تعلمنا في كتب التاريخ، ولكنه امتد بنظرته إلى العالم جميعه. وإلى الطوائف الدينية من يهود ومسيحيين وهندوس وبونيين حتى انتهى إلى قوله إنه لم تكن على ظهر الأرض أمة صالحة المزاج، ولا مجتمع يقوم على الفضيلة، ولا دين صحيح يتصل بالسماء دون انحراف. وكان الخلاص من هذا البلاء على يد الإسلام، إذ كانت دعوته عالمية وإن نشأت في محيط الجزيرة العربية، كان خطاب رسول الله صلى الله عليه وسلم لنفس البشرية أيا كان موقعها، وكانت أمته العربية لانحطاطها أحق الأمم بأن

تواجه الإصلاح العظيم. وهي على ما اكتنفها من شرور أصلح الأمم للقيادة الجديدة لأن شرورها أهون من شرور غيرها، وإن كان المثل يقول ليس في الشر خيار، لقد كانت الديانات قبل الإسلام سطحية تافهة، يسجد فيها الإنسان لصنم يصنعه، ولكن الإسلام جاء المعجزة الكبرى وهي (الإيمان) هذا الإيمان الذي علم المسلمين وخز الضمير ومحاسبة النفس، وعدم الخضوع لكائن بشري مهما كان ملكه لأن الله فوق كل شيئ، وبذلك نقلهم الإيمان من الأنانية إلى العبودية الخاصة بخالق الكون وحده، أما رسول الله صلى الله عليه وسلم فقد حول خامات الجاهلية إلى عجائب الإنسانية حتى لقد انطبق عليهم قول الله (أفمن كان ميتاً فأحييناه وجعلنا له نوراً يمشي به في الناس كمن مثله في الظلمات ليس بخارج منها) ومن عجائب هذه الإنسانية عمر بن الخطاب الذي كان يرعى الإبل لأبيه الخطاب غافلا عما حوله، فإذا به بعد الإسلام يلقى الدروس الخلقية على أمم التكبر والاستعلاء من فرس وروم، وخالد يصبح سيفاً من سيوف الله يقهر أعظم القواد في فارس والروم معا أبو عبيدة وسعد وعمرء بن العاص وغيرهم كثير كثير، يقول المؤلف لقد صنع النبي صلى الله عليه وسلم من هؤلاء كتلة لم يشاهد التاريخ البشرى أفضل منها، وهم كالحلقة المفرغة لايدري أين طرفاها، وسر نجاحهم مهم أنهم لم يكونوا قادة وحكاما بغير أصول خلقية رد تبتع من القرآن، ولم يكونوا خدمة جنس وشعب يسعون لرفاهيته وحده كمستعمري الغرب، وقد علموا أن الإنسان جسم مناسب لايطغى فيه الجسد على الروح، ولا العقل على لاقلب، وقد كان من أثر الإسلام أنه أصلح المسيحية نفسها على يد من درسوا حقائق الإسلام، إذ رفض بعض النصارى عقيدة التثليث، ونشزوا عن الاعتراف الكهني، ودعوا إلى احترام المرأة تشبها بالإسلام ولكن زمام القيادة الإسلامية بعد عهد الخلافة الراشدة لم يسر في طريقه الطبيعي، إذ كان من المؤسف أن يتوالى قيادة المسلمين رجال لم يحملوا عناصر القيادة الصحيحة، وتتابع الأمر. ولكن أشراقات مضيئة ظهرت على يد عمادي زنكي ونور الدين زنكي وصلاح الدين الأيوبي ممن قاوموا الصليبيين، وقد افتقد الإسلام أمثال هؤلاء القواد في محنته الحاضرة التي أصابته على أيدي الصليبيين الجدد في منتصف القرن التاسع عشر وما يليه.

يقارن المؤلف بين الحضارة الإسلامية والحضارة الغربية الحديثة، فقال: إن الحضارة الغربية لها جذور أصيلة من حضارة الإغريق والرومان والمادية هي سمتها الأولى، إذ أن الكسب والابتزاز والاستعمار هو هدفها الأول، وجاءت الشيوعية لتؤكد هذا النظر المادي، كما تغلغل هذا النظر لدى الطبيعيين من أشياع داروين الذين ينظرون إلى الكون على أنه تفاعلات متصلة ولا علة فيه سوى سنن الطبيعة، أما الله فغائب غير موجود، وبذلك ضاعت مبادئ الأخلاق واستراح القوم من وخز الضمير وزاد البلاء بظهور القومية التي جعلت كل دولة تعتقد أنها أفضل الدول، وللأسف سرت هذه العدوى إلى الأقطار الإسلامية، عدوى التعصب للقومية متجالهة روح الدعوة الإسلامية التي أخت بين المسلمين، وكان من نتائج هذه النعرات القومية في الغرب أن اصبحت أوربا معسكراً واحدا ضد الشرق كله، وقد ساعد الكشف العلمي الواثب إلى انتحار أورباء، لأن المخترعات الحديثة لم تتجه الوجهة الأخلاقية، بل اتجهت إلى التدمير والاستئصال. وقد قدم أبو الحسن الندوي إحصاءاً دقيقاً يقرر ان جميع الغزوات والحروب في عهد رسول الله قد أتت على ١٠١٨ نفساً منهم ٢٥٩ مسلماً، أما المصابون في حرب سنة ١٩١٤م فقد بلغ عددهم ٢١ مليون نسمة والمصابون في حرب سنة ١٩٣٩م قد بلغ عددهم ٥٠ مليوناً، ولم تأت هذه الأهوال إلا بسبب المخترعات المبيدة من آلات جهنمية تقشعر منها الأبدان، لقد فقدت أوربا الدين ففقدت التعادل بين القوة والأخلاق، والتوازن بين العلم والدين، فلم تزل القوة والعلم في ارتفاع، والدين والأخلاق، والتوازن بين العلم والدين، فلم تزل القوة والعلم في ارتفاع، والدين والأخلاق، والتوازن بين العلم والدين، فلم تزل القوة والعلم في ارتفاع، والدين والأخلاق في انحطاط لأن البذرة العلمية التي ألقيت في في تربة أوربا في نهضتها لم تأت عليها قرون حتى نبتت منها دوحة (خبيثة) ثمارها حلوة، ولكنها سامة، أزهارها جميلة لكنها شائكة، فروعها مخضرة ولكنها تنفث غازاً ساماً، لايرى ولكنه يسمم البشر، ولاصلاح لأوربا إلا باحتثاث هذه الشجرة من أصلها.

لقد تجدد رجاء الإسلام بظهور العثمانيين على مسرح الأحداث وفتحهم القسطنطينية عاصمة الدولة البيزنطية، وتفرد الشعب التركي تحت حكم العثمانيين

بالحماسة والطموح وتحلى بروح الجهاد، وسلم من الأدواء الاجتماعية، ولو تقدم الأتراك في فنون العلم لسبقوا أوربا جميعها في قيادة العالم، ولكن أوربا هي التي تيقظت من سباتها، ولم تضع الوقت الذي أضاعه المسلمون، ومع أخطاء الدولة العثمانية فقد كانت خصناً منيعاً للإسلام، وأخفقت كل محاولات اليهود معها لتكون فلسطين أرضا يهودية، ولولا دسائس الغرب ماقام العداء بين تركيا والعرب على الوجه المعروف مما أدى إلى بعثرة الشمل الإسلامي.

عاد النظام الجاهل بعد سيطرة أوربا، فأحدث دويه الإلحادي في الامم العربية، وسرت شكوك الملحدين إلى العقائد الدينية، وأصبحت الدنيا سوقاً للبيع والشراء فحسب، وتضخمت معدة الحرص في الإنسان حتى أصبحت لاتشبع وتدهورت الاخلاق إلى حد المجاهرة بالانحلال والبغاء، وأصبح الذهن العربي واقعاً تحت نفوذ العقل الأوربي بماديته الغليظة، وطرحت في أوربا كل تعاليم المسيح، ينتقل الوباء إلى الشرق فينادي المخدوعون بنبذ تعاليم الإسلام لأنها مدعاة التأخر، وبانسحاب المسلمين من معركة الكفاح أخذت أوربا تعلن وصايتها عليهم، حتى صاروا لايملكون من أمرهم شيئاً، والذين يحكمون البلاد سياسياً لايبالون بغير النفع الخاص، وسبيله في رأيهم السير في التيار الأوربي، تابعين غير متبوعين.

والعلاج لهذه الأنواء العاتية هو البعد عن أخلاق أوربا إلى أخلاق الإسلام، فالعالم في حاجة إلى هذا الدين السمح لينقده من جاهليته الثانية، كما أنقذ الإسلام أمم العالم من جاهليتها الأولى عند ظهوره، وسبيل ذلك اولاً الاستعداد الروحي لتلقي المدد الأوفر من الثقة بالله، ثم العمل على التقدم العلمي في مضمار التصنيع والاكتشاف وتفهم روح الإسلام التي غطتها أغشية المستشرقين وأذنابهم حين دعوا إلى فصل الدين عن السياسة، وهتفوا بأن قوانين المجتمع لا تخضع لقواعد الدين، وبلغ الحد المضحك بأصحاب هذه النزعات أن يقولوا إن الحضارة الأوربية هي آخر ماوصل إليه العقل البشري من تمدين، ولابد من احتذائها شبرا فشبرا دون انحراف، ومتى تسمم الجو بهذه الأوبئة الضالة فلابد

من تنظيم العالم الإسلامي تنظيما جديدا يتفق وروح الشريعة، ومنهج القرآن، ولابد من الاستعداد الروحي والصناعي والحربي حتى يتقدم الشرق من جديد.

والعالم العربي له أهميته الكبرى في زعامة الإسلام، واضطلاعه برسالة الإصلاح، فهو إلى جانب ثروته ومناخه وعروبته، ومقدساته، ينظر إليه المسلمون نظرة رفيعة فهو مهد الإسلام ومشرق نوره وله تاريخه المديد في الحضارة، والدولة العربية كلها من حسنات محمد صلى الله عليه وسلم ولن يتقدم هذا العالم إلا بما تقدمت به الدعوة في أول عهدها، بالإيمان، وبالتضحية، وبالفروسية التي تعود الشباب على الخشونة ومحاربة أدوات الإعلام الهابطة وأهمها الصحافة الماجنة، لقد أكرم الله العرب قديما بقيادة الحاكم، وعليهم أن يعرفوا أن رسالتهم دائمة باقية فهبوا لأخذ الوسائل الحاسمة في الانتصار الحاسم، كي يقودوا العالم من جديد.

يستعرض المؤلف أسباب هذا الانحطاط، الروحية والمادية، ويصف ما حل بالمسلمين أنفسهم عندما تخلوا عن مبادئ دينهم ونكصوا عن تبعاتهم، وما نزل بالعالم كله من فقدانه لهذه القيادة الراشدة ومن انتكاسة إلى الجاهلية الأولى، ويرسم خط الانحدار الرهيب الذي ترتكس فيه الإنسانية في ذات الوقت الذي تفتح فيه آفاق العلم الباهرة، يرسم هذا الخط عن طريق التأمل الفاحص، لا بالجمل النارية والتعبيرات المجنحة، فالحقائق الواقعة كما عرضها المؤلف غنية عن كل بهرج وكل تزويق.. ومن خلال هذا الاستعراض يحس القارئ بمدى حاجة البشرية الملحة إلى تغيير القيادة الإنسانية، وردها إلى الهوى الذي انبثق ليخرج الناس من الظلمات إلى النور، ومن الجاهلية إلى المعرفة، ويشعر بالقيمة الكلية لوجود هذه القيادة في الأرض وبمدى الخسارة التي حلت بالبشر جميعًا لا بالمسلمين وحدهم في الماضي والحاضر وفي المستقبل القريب والبعيد، كذلك يثور في نفس المسلم بصفة خاصة روح الندم على ما فرط وروح الاعتزاز بما وهب وروح الاستشراف إلى القيادة التي ضيع.

الكتاب يتكلم عن قفزات ليست قفزات رياضية لكن قفزات تاريخية غيرت افكار العالم و مبادئه الى ان وصلت لاعتقاداته ، و اعتقد ان هذا له تاثير مباشر في السلام العالمي ، فضروري ان نعرف الان الى اين ستوجهنا قفزة القرن الواحد و العشرين .

ما ميز الكاتب هو اطلاعه و دراسته للحضارة الغربية من خلال كتبهم هم بمصادرها الانجليزية مما يوثق المعلومات اكثر و بالطبع على تحليلات المسلمون و ماكتبوا و لكن المهم هنا هو الدراسة التفصيلية للحضارة الغربية لابناء الجيل الجديد .

نحن ندرس تاريخنا و تاريخ العالم لالانسقط في الاخطاء التي ارتكبوها ، فضروري هنا ان نعيد فرز اخطاءنا في الماضي لالا تعاد من جديد .

الحاسة الدينية التي يسميها الكاتب الحاسة السادسة ، يكاد ان يكون المؤشر صفرا في يومنا هذا ، فضروري ان نضيف الدين كمعيار جديد للقياس اضافة للحواس الخمس لنعلم ان التطور ليس مجرد تكنلوجيا و االختراعات و اسلحة و عمران بل هناك معايير اخرى فمثلا لماذا الاختراع هل لتسهيل الحياة ام تدمير الاخر هل للترف ام لحل مشكلة ، و من هي الحضارة الفرعونية او الرومانية او الهندية بكل ما وصلوه ماذا عبدوا ما اخلاقهم ما الضابط الذي يسير الحياة بالنسبة لهم .

لا بد ان يكون للمسلم و العالم معرفة و ادراك اثر الاسلام على العالم ما الذي حدث حين ظهر و ما الذي حدث حين ضعف و ما الذي سيحدث عندما سيظهر من جديد، الاسلام دين عالمي فلا بد للمسلمين ان يبلغوه للعالم بصورته الحقيقية ، ليست الصورة التي نراها في الاعلام ، حتى يكون الدين كله لله و الله متم نوره و لو كره الكافرون.

الإسلام ليس دينا فحسب وإنما هو منهج كامل يشمل كافة جوانب الخياة البشرية ومن أجل ميزاته الاتزان والوسطية بين العالم العقدي والعالم العملي، كما أنه يشجع بل يأمر بالتشبع بالعلم وإحراز التقدم، الغرب يحاول في كل لحظة تخطئة المسلمين وإبداء نقائصهم وزلاتهم ونوت أنظار الناس عن الإسلام إلى نفسه على هذا النحو، وهذا الكتاب يفصل هذا الأمر ويحذر أهل الإسلام من مؤامرات الغرب هذه.

الجحود والجمود آفتان هذه الأمة مصاب بها في هذه الآونة بصفة خاصة، فالجمود يعني التفز عن كل يأتي به الغرب خيرا كان أو شرا، والجحود يعني الخروج عن مبادئ السلف وخيراتهم وقبول كل من حسنات الغرب وسيئاته. ولكن الكتاب يعرض نظرية ثالثة وهي بين الجحود والجمود، مؤسسة على الاتزان، ألا وهي الجمع بين القديم الصالح والجديد النافع، ونظرية "خذ ما صفا ودع ما كدر"، فلا بأس بقبول حسنات الغرب عنده مع التمسك بطريقة السلف الصالح.

تحليل الكتاب التاريخ يدل على أنه قد حانت الساعة لاستبدال زعامة العالم فإنه يمر بأصعب أدواره الآن.

يؤمن صاحب الكتاب بأن الحل الوحيد لكافة أزمات العالم ومشاكله هو انتقال الزعامة العالمية من يد إلى أخرى، من ظلمة إلى حاملي لواء العدل والمساواة، من أتباع الحضارة الغربية إلى أتباع دين الإسلام. إصلاح نفوس المسلمين هو قضية عند الندوي بدلا من إصلاح الإسلام وتعديل مبادئه فإنها دائمة أبدية للتطبيق في كل عصر ومصر.

الكتاب يعرض تحليلا منظما للأسباب والعوامل والعناصر التي يكون لها دور فعال في تكوين حياة صالحة أوطالحة، ويقارن بين الحضارة الغربية والحضارة الإسلامية، ويحقق أولوية الثانية على الأولى، الكتاب ليس سرد وقائع وحوادث بمجردها، وإنما هو تحليل لما يمكن وراءها من علل وعوامل وعواقب تؤثر في المجتمعات التي تأتي بعد. ومنهج الكتاب ليس بعاطفي فحسب، بل هو في الواقع جامع بين العاطفية والواقعية، وبين إعمال الفكرة والمشاعر. ويترك صاحبه، تحتيم القضاء لقارئه حتى يمكنه التوصل إلى ما هو الصواب.

ميزة أخرى للكتاب أن صاحبه كلما يتحدث عن عصر ضقاء الإنسان فإنه يعنونه بالجهل، وذلك يدل على منهجية فكره، بتفريقه بين روحية الإسلام ومادية ما قبله.

وميزته أيضا أنه فهم عميق صحيح لكليات روح الإسلام ومبادئه. وكل ذلك يجعل الكتاب بحثا ممتازا بجوانبه التاريخية والدينية والاقتصادية. حاول المؤلف عرض الحقائق بكل وضوح وإيجاز من أسباب تداول الكتاب وشهرته أسلوبه الشائق الاجتماعية الثقافية.

كتابه في نثر سهل بسيط، ومؤثر رائع، وكلماته سهلة لا يحتاج الإنسان إلى القواميس لحلها عادة، إنه استخدم جملا طويلة، فيها تكرار وإسهاب، وربما ترى تكرارا في الفقرات كلها.

البعض يقارن كتابه بالأيام لطه حسين، بما أن بينهما تشابها، فإنك ترى في كليهما أسلوب خطاب ممتاز، ويبدو لك أن الكتاب يتحدث إليك مباشرة.

الكتاب لا محالة من أروع نماذج نثر القرن العشرين، له دور بارز في إعادة الثقة إلى نفوس المسلمين بصحة مبادئ الإسلام وأصالتها. وعن صدى الكتاب كتب بعض المفكرين والمثقفين عنه، فعند شكري وضوح الكتاب إحدى ميزاته التي أثرت عن انعكاس وضوح الفكرة والإيمان بها وفيضها عن ذات المؤلف العميقة، وعد يوسف موسى قراءة الكتاب فرضا على كل مسلم، وهناك فهرس طويل للعلماء كتبوا ملاحظاتهم وانطباعاتهم عن الكتاب منهم الطنطاوي، والشرباصي، وشكري فيصل، وأحمد أمين، والعقاد، وسيد قطب، وعبد الرزاق حمزة، ولشهرته ترجم إلى كثير من اللغات المحلية والدولية، وصدرت طبعاته متتالية، ذات المؤلف وعلمه مما حبل الكتاب ينال هذه الشهرة العريضة، ولا شك أن إخلاص النية وصدق التوجة وعمق المعرفة عوامل مهمة في طرح الأفكار المتميزة التي تمثل محتوى هذا الكتاب النفيس والتي أحلته المنزلة العالية ورفعت اسم مؤلفه في ميدان الفكر والدعوة.

لقد حاولت بكل ما في وسعي في إعداد البحث، وخسرت كافة الإنكانيات والوسائل والطاقات لجعل هذا البحث موثوقا به، ولما أن موضوع بحثي دراسة الجوانب التاريخية الاجتماعية في كتاباته وخاصة في "ماذا خسر" فلم أشعر بحاجة إلى التوجه إلى جوانب أخرى تتواجد في كتاباته، وبالتالي نعرض بعض جوانب يمكن إعداد البحوث حولها لمن اعتنى بها من الباحثين والعلماء:

١. بعض جوانب الفكر الإسلامي المعاصر: الإرشاد والقيادة في كتابات أبي الحسن الندوي.
٢. أبو الحسن الندوي كاتبا ومفكرا (في ضوء كتاباته وخطاباته).

٣. جهود أبي الحسن الندوي في مجال الأدب الإسلامي: اتجاهات ونماذج.
٤. أبو الحسن الندوي نظرته السياسية ودوره في حل قضايا مسلمي الهند.
٥. أبو الحسن الندوي ودوره في مجال التعليم والتربية الإسلامية.
٦. أبو الحسن الندوي جهوده ومنهجيته في مجال الدراسات القرآنية والحديثية.
٧. أجزاء السيرة النبوية في مؤلفات أبي الحسن الندوي.
٨. أبو الحسن الندوي مؤرخا.
٩. السلوك عند أبي الحسن الندوي.
١٠. الندوي بين معارضيه ومناصريه.